

الفصل الثاني

توظيف المبالغة للتراكيب الفنية

- (١) الأساليب الإنشائية " الطليبة " .
- (٢) الأساليب الإنشائية " غير الطليبة " .
- (٣) الأساليب الخبرية .

تمهيد :

أسلوب القرآن الكريم له تميزه ، وتفرده ، ومن ثمّ انماز هذا النظم القرآني عن النتاج الأدبي البشري في مفرداته ، وتراكيبه ، ويطلق الأسلوب في لغة العرب على دلالاتٍ مختلفة^(١) بيد أن مفهومه يتبلور - اصطلاحياً - في الأداء اللفظي المنبثق عن قوة البيان ، الناجم عن جودة الطبع والتمرس بالكلام البليغ شريطة أن يتوخى في إبداعه الحسّ الوجداني والمغزى الفكري ، والملمح التصويري ملتصقاً في ذلك أسباب الصحة والوضوح ، وأسس الجمال قصداً للإفهام والتأثير والإقناع^(٢) .

ولا غرو أن " عبد القاهر " بحديثه عن النظم^(٣) أسهم في إبداء الأداء الجمالي للتركيب ؛ إذ هي تتبني على حسن الاختيار ، وجودة التقوية والوشى ، هذا بالإضافة إلى التركيز على أعمال الفكر والروية ، وتحريك الخاطر واستتفار الهمة ، وناقش قبل أن يقرها العناصر الأخرى التي يمكن أن تسهم في بناء جمال الأسلوب ، وهي اللفظ والمعنى والحرف والإيقاع العام والغرابية والخفة ، ولقد نفى أن تكون هذه العناصر وحدها هي سرّ الأسلوب القرآني ؛ لأنها عناصر مألوفة متداولة قبل نزول القرآن واهتدى إلى أن الجديد في الجمال القرآني هو النظم^(٤) .

وسرّ القرآن أنه ينماز في طرائقه وخصائصه عمّا تمرّس به الناس من فنون الأدب وما ألفوه من أساليب اللغة ، إذ لا طاقة للخلق - كل الخلق - أن يأتوا بسورة من مثله أو يحيطوا بكنهه ، أو يدركوا سرّه ولو

(١) في اللسان : " يقال للسطر من التخيل : أسلوب . وكل طريقٍ مُنتدّ فهو أسلوب ، قال : والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب ، يُقال : أنتم في أسلوبٍ سوء ، ويُجمع أساليب ، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه والأسلوب (بالضم) الفن ، يُقال : أخذ فلان " في أساليب من القول أي أفانين منه " لسان العرب مادة " س ، ل ، ب "

(٢) انظر في ذلك : الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية - ط التاسعة ١٩٩٥م / ٤٤ ، ٥٢ ، ومن أسرار اللغة - د . إبراهيم أنيس - مكتبة الأجلو المصرية - ط السابعة ١٩٩٤م / ٢٧٨ ، والأسلوبية والبيان العربي تأليف د . محمد عبد المنعم خفاجي ، د . محمد السعدي فرهود ، د . عبد العزيز شرف - الدار المصرية - ط الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م / ٧٠٥ .

(٣) انظر دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمود محمد شاكر - مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة - ط الثالثة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢م / ٣٦ - ٨٨ .

(٤) انظر دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث - د . أحمد درويش - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩٨م / ١٠٨ .

كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ، فهو كلام الله وتنزيله السماوي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ ” من حكيم حميدٍ ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١) وإليك بعض هذه الخصائص :

الخصيصة الأولى :

انساق القرآن وأتلافه في حركاته وسكناته ، ومداته وغنّاته ، واتصالاته ووقفاته انساقاً عجيباً ، وأتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع ويستهوِي النفوس بطريقة عزّ أن يصل إليها كلام بشر .

الخصيصة الثانية :

إصابته المعنى في يسر للعامة والخاصة ، فأياً كانت ثقافة القارئ فإنه مدرك جلاله ، ذائق حلاوته ، أدرك ذلك لا محالة وليس كذلك كلام البشر .

الخصيصة الثالثة :

أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معاً ، ويجمع الحق والجمال على السواء ويُحْدِثُ الحَيَوِيَّةَ والأرِيحِيَّةَ للروح والجسد دَقَّةً واحدة .

الخصيصة الرابعة :

جودة سبك القرآن وإحكام سرده ، حيث بلغ من ترابط أجزائه وتضام كلماته وجملته وآياته وسوره مبلغاً لا يُدَانِي هذا إضافة إلى تنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد .

الخصيصة الخامسة :

براعته في تصريف القول ، وثروته في أفانين الكلام حيث يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة ، تتقطع في حلبتها أنفاسُ الموهوبين من الفصحاء والبلغاء .

الخصيصة السادسة :

جمع القرآن بين الإجمال والبيان^(١) ، تسمع الجملة منه فإذا هي بيّنة "مجملة" في أن واحد ، أما أنها بيّنة ؛ فلأنها واضحة المغزى وضوحاً يُريح النفس من عناء التفقيب والبحث لأول وهلة ، فإذا أنعمت النظر فيها لاحت منها معانٍ جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً وكلما أنعمت فيها النظر زادت من المعارف والأسرار ، بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حدّ قول القائل :

يزيدك وجهه حسناً . . . إذا ما زدته نظراً^(٢)

وأخيراً بات من المفيد أن أقدم إطلالة موجزة عن طبيعة دراسة القدماء والمحدثين لمجمل التراكيب الفنية في القرآن الكريم ، إذ تناول القدماء " التراكيب " من خلال ما يُسمّى بعلم المعاني^(٣) ، وهو واحد " من فروع علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبدیع ، وثمّ فارق " زمني بين تناول المسائل التي تضمها مباحث هذا العلم على يد البلاغيين وبين إطلاق هذا المصطلح على هذه المسائل - وتسميتها باسم علم المعاني .

(١) المجمل ماله دلالة غير واضحة ... والمبين مالا يخفاء فيه لا ما وقع إليه السياق مثال الأول لفظ القُـرء ولفظ مختار ، وقوله تعالى : " إلا ما يتلى عليكم " المائدة / ١ لأن الأول متردد بين الحيض والطهر ، والثاني بين الفاعل والمفعول والثالث مجهول معناه قبل نزول آية " حرمت عليكم الميتة " المائدة / ٣ والمبين نحو قوله تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا " المائدة / ٣٨ و قوله تعالى : " حرمت عليكم أمهاتكم " النساء / ٢٣ .

(٢) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقاني - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٨٠م / ٣٠٢ - ٣٢٦ .

(٣) هو علم " يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال " الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تحقيق د . عبد القادر حسين - مكتبة الآداب - ١٩٦٦م / ٣٧ وقال الشاكي : علم المعاني : هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره " مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ط الثانية ١٤١١ هـ = ١٩٩٠م / ٩١

ومن المعلوم أن علم " البيان " يتعامل مع المفردات (وكيفية اهتزاز تطابقه المعجمي ، وتحريير الدال من مرجعه الوضعي ليُحطَّق في إطار التشكيل البلاغي بكل احتمالاته من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز)^(١) بينما يتعامل " علم المعاني " مع التراكيب وهي مدار المبحث للعمل على استخراج فنيات الأسلوب وجمالياته من خلال التوظيف الفني للتركيب، الذي يقول عنه د . منير سلطان (هو الحالة الخاصة التي يحيها هذا التركيب مع مجموعة من التراكيب داخل منظومة متناسقة ، هو : التوفيق بين خصائص التركيب ، واختيار المكان الذي يصلح له دون غيره ، التوظيف الفني : هو هذا التشكيل الدقيق المحسوب الذي يمنحه الفنان روحه وذوقه وكيانه ، التوظيف الفني : هو العمل الحقيقي للفنان ؛ لأنه - أولاً - وأخيراً - يتعامل مع كتل خام لها مواصفاتها اللغوية المعروفة ، ومهمته أن يستغل كل هذه المواصفات والطاقات ويصب منها تمثالاً فيه رقة وفيه قوة وله شخصية ويحمل في داخله داخله عرقاً ينبض من عروق قلب هذا الفنان)^(٢) .

وإن رُمّت مزيداً من الدقة ، ألفيت " المبالغة " تدور في فلك تلك التراكيب التي تتحصر تحت ما يعرف بـ " الخبر والإنشاء " قال السيوطي عنهما (اعلم أن الحُدَّاق من النحاة وغيرهم وأهل البيان قاطبة على انحصار الكلام فيهما وأنه ليس له قسم " ثالث . وادّعى قوم " أن أقسام الكلام عشرة : نداء ، ومسألة ، وأمر ، وتشفّع ، وتعجّب ، وقسم ، وشرط ، وشك ، واستفهام)^(٣) وقد نشب بين البلاغيين المحدثين جدال " شديد " حيال الأوّلَى منهما بالدخول في دائرة البلاغة ، والألصق بالتركيب الفني والأجدر باللفات الجمالية^(٤) .

(١) البلاغة العربية - قراءة أخرى - د . محمد عبد المطلب - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونغمان - ط الأولى ١٩٩٧م / ٢٠٠

(٢) بديع التراكيب في شعر أبي تمام - ١- الكلمة والجمله - د . منير سلطان - منشأة المعارف بالاسكندرية - ط الثالثة ١٩٩٧م / ٢٧٨ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن - للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - مكتبة دار التراث - ٢٢٥ / ٣ .

(٤) يرى فريق " من البلاغيين المحدثين أن الأوّلَى بالدراسة الفنية هي الأساليب الإنشائية دون الخبرية ، لأن القدماء أجرّوا الأخيرة من خلال زاوية ضيقة زاوية الصدق والكذب وإن الفن لا يخضع لقانون التصديق والتكذيب ، وإنما يخضع لقانون الذوق والإبداع ؛ بل يرى البعض أن الأساليب الإنشائية ذاتها ليست كلها داخلة في التراكيب الفنية ، فهي إذ تنقسم إلى طليبة وغير طليبة لا يرون موضوعاً للدراسة الفنية -

وارتضيت - بعد لأي - مع توفّر الأساليب البلاغية المنوطة بالمبالغة من خبرية وإنشائية (طلبية وغير طلبية) كالاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والعرض ، والتمني ، والترجي ، والتحضيض ، والقسم ، والتعجب ، والمدح والذم ، والحذف ، والالفتات ، والمخاطبة ، والتكرار ، والطباق ، والقصر ، والتقديم ، والتأخير ، والتعليل ، والشرط ، والنفي ، والتوكيد .

أن نحو منحى القدماء في التفارقة بين الأساليب الخبرية والإنشائية

= إلا الأولى فقط يقول أحمد مصطفى المراغي (وينقسم (الإنشاء) إلى :

١- طلبية وهو خمسة أنواع : الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء ، ويعرف بأنه يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب .

٢- غير طلبية وهو ما يستدعي مطلوباً حاصلًا وأنواعه كثيرة منها صيغ المدح والذم ، والعقود

كعبت واشتريت ووهبت والقسم ، والتعجب . والذي يهتم بالبلغ بالبحث عنه هو القسم الأول

لأن فيه من المزايا واللطائف ما ليس في القسم الثاني (علوم البلاغة / ٧٣ ويتابعه في

ذلك الدكتور عبد القادر حسين إذ يقول : (والإنشاء غير الطلبية : لا يبحث فيه علم المعاني ،

لقلة فوائده البلاغية ولأن أكثر أنواعه إنما نقلت عن الخبرية فيستغنى بأبحاثها بخلاف الإنشاء

الطلبية : فهو موضع عنايتهم . لما فيه من الدقائق اللطيفة ، والفوائد الجليلة) فن البلاغة - د .

عبد القادر حسين - عالم الكتب - ط الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م / ١١١ أما الدكتور

شفيق السيد فحتى الطلبية منه لا يسلم عنده كله للدخول في دائرة البلاغة (وفي أسلوب

الإنشاء يلحظ الدارس في كلام البلاغيين إسراقاً شديداً في تفريع المعاني والدلالات وتوليدها ،

فإذا أعوزهم النموذج الدال من الشعر أو النثر اصطنعوا مثالاً يؤيدون به ما يريدون ، وهذه

سمة عامة في الواقع في المباحث البلاغية كلها عند المتأخرين على أن الأهمية الحقيقية لهذا

الأسلوب في دلالاته تتركز في أسلوب الاستفهام والأمر ، وأولهما خاصة ، أما الأساليب الباقية

فليست بذات شأن ، ويبدو كثير مما ذكر لها من دلالات أمراً متكلفاً ، وكأنما أرادوا استيفاء

الحديث عن سائر الأساليب الإنشائية متابعة منهم في ذلك للنحويين (البحث البلاغي عند العرب

- تاصيل وتقييم - د . شفيق السيد - دار الفكر العربي - ط الثانية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

/ ١٨٦ بيد أن الدكتور منير سلطان يرى أن لا جدوى من هذه التقسيمات والتفريعات (ولو أعدنا

النظر ، لأرحنا أنفسنا من مسمى هذه " الجملة الإنشائية " لأن الجملة الإنشائية خبرية في

مضمونها ، فالاستفهام خير " عن المتكلم يطلب فهم شيء بعينه ، والأمر : خير " عن الأمر

بفعل شيء ، والنهي : خير بعدم فعل شيء ، والنفي : خير " بأنه لم يحدث شيء والتمني : خير

عن الأمل في شيء ... الخ) بديع التراكيب - د . منير سلطان / ١٩٣ ، والظاهر أننا لا

نستطيع أن نحكم مسبقاً أي تلك الأساليب أجدر بالفنية ، فمتى كان الأسلوب يليغاً رصيناً

فهو أدخل والصق دونما نظر إلى كونه خيراً أو إنشائياً ، وإلا فقلّ أولاً : أين تجد بلاغيات

التعريف والتكبير ، والتقديم والتأخير والحذف ، والالفتات ... الخ ؟ هل تجدها في الإنشائية دون

الخبرية ؟ ، أو تجدها في الطلبية دون غير الطلبية ؟ ثانياً : ماذا تفعل بالأساليب الخبرية

القرآنية هل تخرج كذلك من دائرة البلاغة ؟ وأخيراً : كيف الحال إذا أنت " المبالغة " مقترنة

بالأساليب الخبرية أو منوطة بأساليب المدح والقسم والتعجب والمخاطبة والتكرار تلك التي خلا

معظمها - في نظرهم - من المزايا واللطائف ؟ ، فهل تُردُّ لذاتها دون الالفتات إلى النكات

البلاغية التي اعتورتها . في الواقع (هذا حيز " على الأساليب ، وقصور في فهم عمل البليغ ،

فكل أسلوب ارتقى عن المستوى المباشر في الأداء ، يصلح مادةً للبلاغي يبحث فيه من مزيته

وفضيلته والإبداع الكامن فيه) بديع التراكيب / ١٩٤ .

الطلبي منها وغير الطلبي وأبغى من جرّاء ذلك عدة أمور :

أولاً : التزمتُ هذا السّمَت التّراثي قصداً للترتيب والتنظيم ؛ إذ يعمل هذا على جمع الفكرة وتجميع الظاهرة ، فقد تبدو ظاهرة " ما " تتعلّق بالأسلوب الخبري ، وأخرى تتعلّق بالإنشائي ، ومن ثمّ يمكن رصد سمات كل أسلوب على حدة دون خلطٍ أو تداخل .

ثانياً : أريد أن أثبت - بما لا يدع مجالاً للشك - عن طريق الدراسة بهذا الترتيب أن الجملة الخبرية والأخرى الإنشائية غير الطلبيّة - التي خلت في نظر البعض من اللطائف والمزايا - لم تخلوا من فن ولم تفقدا الذوق وإدراك الجمال .

ثالثاً : لست أقصد من وراء هذا للوقوف عند رسم القدماء ، واحتذاء نهجهم ، والفرح باقتفاء حردهم ، كما أنني لست أعمل في الوقت ذاته على التقليل من شأن التراث ، والنيل من مصداقيته ، فيقيني أن دراسة مثل هذه لا يكتب لها النجاح إلا إذا جمعت بين إكبار التراث والإفادة من جهة أخرى من كل وافدٍ جديدٍ يعمل على تزويد البلاغة بدماءٍ جديدة .

(١) الأساليب الإنشائية " الطلبيّة "

أ- توظيف الاستفهام للمبالغة (١)

الاستفهام : هو طلب فهم شيء لم يكن لك به علم " قبل " ، بأداة من إحدى أدواته وهي : الهمزة وهل ومن ومتى وأيان وأين وأنى وكيف وكـم وأي (٢) وهو ما اصطلح البلاغيون على تسميته بالاستفهام الحقيقي .

(١) رجعت في هذا الموضوع إلى : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢ / ٣٢٦ ، والإتقان للسيوطي ٣ / ٢٣٤ ، دراسات لأسلوب القرآن العزيمة ٣ / ٩٤ ، ٢٨٠ ، وعلوم البلاغة للمراغي / ٧٦ ، وبيدع التراكيب للدكتور منير سلطان / ٣٥١ ، والبلاغة العربية للدكتور محمد عبد المطلب / ٢٨٤ ، ودراسات في المعاني والبيدع للدكتور عبد الفتاح عثمان / ٨٩ ، وفن البلاغة للدكتور عبد القادر حسين / ١٢٢ هذا إضافة إلى كتب التراث في البلاغة العربية .

(٢) وتنقسم هذه الأدوات بحسب الطلب ثلاثة أقسام :

- ١- ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى ، وهو الهمزة .
- ٢- ما يطلب به التصديق فحسب وهو : هل .
- ٣- ما يطلب به التصور فحسب وهو بقية أدوات الاستفهام . والظاهر أن مصطلحي " التصور " و " التصديق " غريبان عن حقل البلاغة وأنها نشأ في بيئة الفلاسفة . انظر بيدع التراكيب / ٣٥٦ .

يَبْدُ أنه يخرج أحيانًا عن هذه الدلالة السطحية إلى دلالة أخرى عميقة حيث ينتقل السياق من المعنى المباشر إلى المعنى المثالي ، وهو ما أطلق عليه : " الاستفهام المجازي " وهو مناط الفنية ، ومحط اللفظات الجمالية ، إذ يحتوي على دلالات جديدة ، خرجت عن دلالات الإفهام والإخبار والإعلام إلى دلالات : الاستبطاء والتعجب والوعيد ، والأمر ، والتقدير ، والإنكار ، والتوبيخ ، والتعظيم ، والتحقير ، والتحسر ، والتمني ، والزجر ، والعظة والاعتبار ، والإغراء ، والحض ... الخ ، والذي يعنينا من كل هذه الدلالات في مبحثنا ما علق بدلالة " المبالغة " ورسم التصور البعيد وأغرب وكثف الفحوى ، وأصاب مراميها من أقاصي معانيه ، ورام المضامين من أفانين الأقوال وبديع التراكيب كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (١)

السؤال " هل امتلأت " ؟ والجواب أنه للتقرير والتوقيف ، لا سؤال استفهام حقيقة ؛ لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم (٢) أما قول " جهنم " هل من مزيد " ؟ فهو إما بلسان المقال أو بلسان الحال وعلى هذين الحالين قامت تأويلات المفسرين . قال ابن جزي : (وتقول هل من مزيد) الفعل مسند إلى جهنم وقيل إلى خزنتها من الملائكة ، والأول أظهر ، واختلف هل تتكلم " جهنم " حقيقة أو مجازًا بلسان الحال ، والأظهر أنه حقيقة ، وذلك على الله يسير ، ومعنى قولها " هل من مزيد " إنما تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ ، وقيل معناه لا مزيد أي ليس عندي موضع للزيادة هي على هذا قد امتلأت والأول أظهر وأرجح ، لما ورد في الحديث لاتزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يلقى فيها الجبارُ قدمه) (٣) بحيث لم تدع النار للكافر أدنى احتمال في اكتفائها وامتلائها ، فقد اتسعت اتساعًا مهولًا حتى إنها لتتطرق بنفسها لتلمس المزيد (فأقام تعالى الأمر المدرك بالعين مقام المسموع بالأذن) (٤) فلربما أخطأت عينه فلم تر الاتساع العظيم ، فجاء الإدراك الثاني " المسموع " ليقرع أذنه ويوقفه أمام الحقيقة المرة وهي ترَبُّص " جهنم " به ، تكاد تميز من الغيظ ، تتلمظ كلما ألقى فيها وقودها البشري قائلة " هل من مزيد " ؟ ! .

(٢) انظر البحر المحيط ١٢٦ / ٨ .

(١) ق / ٣٠

(٤) تلخيص البيان للشريف الرضي ٢٩٢ /

(٣) التسهيل ٦٥ / ٤

وجمال القرآن أنه يتسع لكل التأويلات ، يتسع للحقيقة كما يتسع للمجاز ، وهذا البروز الظاهر الناطق " لجهنم " بتلك الصورة المحدثثة قد منح المعنى أقصى غاية في إدراك قوة الحدث الناشئ عن النار بقوة اتساعها وتهيئتها ، واستعدادها لاستقبال أضخم عدد ممكن من الكافرين والمكذابين ، وقد قطعت عليهم فكرة احتمالية الاكتظاظ والامتلاء .

كذلك قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

هذا خطاب الله لأخبار اليهود إذ يقول لهم على سبيل التقرّيع والتوبيخ " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " هل تدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وتتركون أنفسكم فما ذلك بفعل العقلاء .

(الاستفهام هنا للتوبيخ لعدم استقامة الحمل على الاستفهام الحقيقي فاستعمل في التوبيخ مجازاً بقرينة المقام) (٢) ومن اللغات الجمالية أن السياق القرآني أتى بالمضارع " أتأمرون " وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار وكان هذا دأبهم في كل حال وزمان ، وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان " وتنسون أنفسكم " مبالغة " في الترك ، كأنه لا يجري لهم على بال ، وعلقه بالأنفس توكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة ، كذلك لا يخفى ما في الجملة الحالية " وأنتم تتلون الكتاب " من التبيكيت والتقرّيع والتوبيخ .

أما الاستفهام الثاني " أفلا تعقلون " فالمعنى أنتلونه (فلا تعقلون ما فيه أو قبح ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه فالإنكار متوجه إلى عدم العقل بعد تحقق ما يوجبه ، فالمبالغة من حيث الكيف ، أو ألا تتأملون فلا تعقلون فالإنكار متوجه إلى كلا الأمرين والمبالغة حينئذٍ من حيث الكم) (٣) .

(١) البقرة / ٤٤

(٢) التحرير والتنوير ١ / ٤٧٤ ، ٤٧٥

(٣) أبو السعود ١ / ٩٧

ومثله قوله تعالى : ﴿ اٰحِبُّ اٰحَدَكُمْ اَنْ يَّأْكُلَ لَحْمَ اَخِيهِ مَيْتًا فَكَّرْهُتَمُوهُ ﴾ (١)

حيث وُظِّف الاستفهامُ ليُبَيِّن لنا هذه الصورة المنفرة من الغيبة لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أقطع وجه ، وأفحشه ، ومبناه على أصل معروف في كلام العرب وهو تسميتهم المغتاب بأكل لحوم الناس حتى قال شاعرهم :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم . : وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

وحمل السياق لفئات جمالية ولوحات فنية متعددة إضافة إلى الاستفهام منها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الناس لا يحب ذلك بحال ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً وفيه من التنفير ما فيه ، ومنها عدم الاقتصار على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً مبالغة في التنفير والكراهة (٢) .

ومنه المبالغة في لطف العتاب نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٣)

إنه عتاب " بليغ " مؤثر : أما حان الوقت للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله ، إذ بعث فيهم نبياً كريماً - صلى الله عليه وسلم - وأنزل عليهم آياته البينات وأتم عليهم مننه وفضله (قيل كانوا مجدين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله استببطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على

(١) الحجرات / ١٢ ، قال الراغب الأصفهاني : (أكل فلان - فلاناً : اغتابه ، وكذا : أكل لحمه قال تعالى : ﴿ اٰحِبُّ اٰحَدَكُمْ اَنْ يَّأْكُلَ لَحْمَ اَخِيهِ مَيْتًا ﴾ المفردات / ٨٠

(٢) انظر الكشاف / ٤ / ١٥ ، وتلخيص البيان / ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، والتسهيل / ٤ / ٦١ ، والبيضاوي / ٢ / ٤١٧ ، وأبا السعود / ٨ / ١٢٢ ، والبحر المحيط / ٨ / ١١٤ ، والقرطبي / ٩ / ٦٣٨٥ ، والتحرير والتنوير مجلد ١٢ / ٢٦ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،

(٣) الحديد / ١٦ ، سمع " الفضيل بن عياض " قارئاً يقرأ هذه الآية فقال قد أنى فكان سبب رجوعه إلى الله وحكى أن عبد الله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضربه فتطق بهذه الآية فكسره ابن المبارك وتاب إلى الله . انظر التسهيل / ٤ / ٩٧ ، ٩٨ .

رأس ثلاث عشر من نزول القرآن وعن الحسن رضي الله عنه أما والله لقد استبطنهم وهم يقرءون من القرآن أقل مما تقرأون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق وعن أبي بكر رضي الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم " من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديداً فنظر إليهم فقال هكذا كنا حتى قست القلوب (١) فهذه المبالغة في اللطف ، وهذا العتب الرقيق ، فيه استمالة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكره وتقبل ما نزل من الحق بما يليق بجلاله سبحانه وعظمته ، فحقه أن يذكر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفر وأن يُطاع فلا يُعصى ، واللافت في الاستفهام سياق " ألم بأن ؟ " ففيه تكثيف دلالة الاستفهام التي تمنح المُتلقي دلالات الرأفة والحض وعدم التّعاس عن الاستجابة والمسارعة إلى التنفيذ .

ومنه المبالغة في الترغيب : نحو الترغيب في النفقة كما في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (٢)

أي من ذا الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ، وتسمية الإنفاق قرضاً تُلطف في الاستدعاء ، ومبالغة في الترغيب في الإنفاق كما أن ذكر لفظ " القرض " يُعدُّ تقريباً للأفهام ؛ لأن المنفق ينتظر الثواب كما ينتظر المسلف رد ما أسلف (٣) ووصف القرض بالحسن لاشتراط الإخلاص فيه وطيب النفس (٤) وقد فهم الصحابة الآية القهم الصحيح مطابقة لإيمانهم الراسخ ، ووفقاً للدلالة المجازية ، فهذا أبو الدحداح يفهم الغرض من الآية على أنه حض " وترغيب في الإنفاق ،

(١) الكشاف ٤ / ٦٦

(٢) البقرة/ ٢٤٥ ، قال أبو إسحق النحوي في قوله تعالى : " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً " قال معنى القرض البلاء الحسن ، تقول العرب : لك عندي قرض " حسن " وقرض " سيئ " ، وأصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ؛ والله عز وجل لا يستقرض من عوز ولكنه يبلى عباده . انظر لسان العرب ٥ / ٣٥٨٩

(٣) انظر التسهيل ١ / ٨٧

(٤) قال القرطبي : قال زيد بن أسلم : لما نزلت : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) قال " أبو الدحداح " : فذاك أبي وأمي يا رسول الله إن الله يستقرضنا ، وهو غني عن القرض ؟ قال : " نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة قال : فإني أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة ؟ قال : " نعم " قال : ناواني يدك . فتأوله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : إن لي حديقتين : إحداهما بالساقلة ، والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما ، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اجعل إحداهما لله ، والأخرى دعها معيشة لك ولعيرالك " قال : فاشهد يا رسول الله أنني =

فَقِيلَ بِي بِمَنْتَهَى الإِجَابِيَّةِ وَيَتَصَدَّقُ بِحَدِيقَةٍ بِهَا سِتْمَائَةٌ نَخْلَةٌ ، فَنَعَم مَا فَهَمَ ، وَلِنَعَم عَقُولَ الْمُتَّقِينَ لَكِنَّ ثُمَّ فَهَمًا آخَرَ خَاطِئًا ، فَهَمُّ يَهُودِيٍّ " مَا كَرُّهُ هُوَ فَنَحَاصُّ أَوْ حَيِّيُّ بْنُ أُخْطَبٍ ، لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ قَالَ : (إِنَّمَا يَسْتَقْرِضُ الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ ، فَاللَّهُ فَقِيرٌ " وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ " وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (١) وَكَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْهُمْ اعْتِرَاضًا عَلَى الْقُرْآنِ أَوْجِبُهُ قَلَّةَ فَهْمِهِمْ ، أَوْ تَحْرِيفَهُمْ لِلْمَعْنَى ، فَإِنْ كَانُوا قَالُوهُ بِاعْتِقَادِ فَهُوَ كُفْرٌ ، وَإِنْ قَالُوهُ بِغَيْرِ اعْتِقَادِ فَهُوَ اسْتِخْفَافٌ وَعِنَادٌ (٢) أَرَأَيْتَ كَيْفَ أَدَّى التَّحَوُّلُ مِنَ الاسْتِفْهَامِ الْحَقِيقِيِّ إِلَى الاسْتِفْهَامِ الْمَجَازِيِّ إِلَى الدَّلَالَةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمُضْمُونِ الْمُرَادِ ، وَأَنَّ الْعَكْسَ قَدْ أَوْدَى بِالْيَهُودِ وَأَفْضَى بِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ . وَيُمْكِنُكَ أَنْ أَرَدْتَ فَهْمَ جَمَالِ النَّسْقِ الْقُرْآنِيِّ أَنْ تَتَّصِرَ مَرَاحِلَ لِلْمَعْنَى قَدْ تَمَّتْ حَتَّى تَصِلَ إِلَى إِدْرَاكِكَ أَبْعَادِ هَذَا النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْبَلِيغِ كَالآتِي :

١- أَنْفَقَ فَهُوَ فَرَضٌ " عَلَيْكَ بِمَا مَنَحَكَ اللَّهُ مِنَ الْمَالِ وَالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْكَسْبِ .

٢- أَنْفَقَ يُجَازِكُ بِالْإِنْفَاقِ مَالًا كَثِيرًا وَأَجْرًا عَظِيمًا .

= قَدْ جَعَلْتَ خَيْرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ حَانِطٌ فِيهِ سِتْمَائَةٌ نَخْلَةٌ ، قَالَ : " إِذَا يَجْزِيكَ اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ " فَانْطَلَقَ أَبُو الدَّحْدَاحِ حَتَّى جَاءَ أُمَّ الدَّحْدَاحِ ، وَهِيَ مَعَ صَبِيَّاتِهَا فِي الْحَدِيقَةِ فَأَخْبَرَهَا ، فَقَالَتْ أُمُّ الدَّحْدَاحِ : رِبْحٌ بِسَيْعِكَ ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ قِيمًا اشْتَرَيْتَ ، وَأَجَابَتْهُ أُمُّ الدَّحْدَاحِ ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى صَبِيَّاتِهَا ، تُخْرِجُ مَا فِي أَقْوَاهِمُ ، وَتُخْرِجُ مَا فِي أَكْمَامِهِمْ ، حَتَّى أَفْضَتْ إِلَى الْحَانِطِ الْآخِرِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " كَمْ مِنْ عِزْقٍ رَدَّاحٍ ، وَدَارٍ فَيَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ . انْظُرِ الْقُرْطُبِيُّ ١ / ١١٤٩ ، ١١٥٠ .

(١) آل عمران / ١٨١

(٢) انْظُرِ التَّسْهِيلَ ١ / ١٢٥ ، ١٢٦ ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : (كُنِيَ اللَّهُ - سَبْحَانَهُ - عَنِ الْفَقِيرِ بِنَفْسِهِ الْعَلِيَّةِ الْمُنْزَهَةِ عَنِ الْحَاجَاتِ تَرْغِييًا فِي الصَّدَقَةِ ، كَمَا كُنِيَ عَنِ الْمَرِيضِ وَالْجَائِعِ وَالْعَطْشَانِ بِنَفْسِهِ الْمَقْدَسَةِ عَنِ السَّفَاقِ وَالْأَلَامِ . فَكُنِيَ صَحِيحَ الْحَدِيثِ إِخْبَارًا عَنِ اللَّهِ - تَعَالَى : (يَا بَنِي آدَمَ مَرَضَتْ قَلْمٌ تَعْدُنِي وَاسْتَطَعَمْتُكَ قَلْمٌ تَطْعَمُنِي وَاسْتَسْقَيْتُكَ قَلْمٌ تَسْقِينِي) قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ! ؟ قَالَ : " اسْتَسْقَاكَ عِبْدِي فَلَانَ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي " وَكَذَا فِيمَا قَبْلَ (أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ خَرَّابٍ) وَهَذَا كُلُّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّشْرِيفِ لِمَنْ كُنِيَ عَنْهُ تَرْغِييًا لِمَنْ خَوَّطَبَ بِهِ (الْقُرْطُبِيُّ ١ / ١١٥١) ، وَعَنْ بَيَانَ الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّدَقَةِ وَالْقَرْضِ يَنْقُلُ الْقُرْطُبِيُّ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (رَأَيْتَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبًا الصَّدَقَةَ بَعَثَرُ أَمْثَالِهَا وَالْقَرْضَ بِثَمَانِيَةِ عَشْرٍ ، فَقُلْتُ لِجَبْرِئِيلَ : مَا بِالْقَرْضِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ قَالَ : لِأَنَّ السَّائِلَ يَسْأَلُ وَعِنْدَهُ ، وَالْمُسْتَقْرِضُ لَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ (الْقُرْطُبِيُّ ١ / ١١٥٢)

٣- أقرض ربك = الذي جاء عليه التعبير القرآني ، تَلَطَّفَ في الاستدعاء كما ذكر الزمخشري (١) . على سبيل الوصول بالمعنى إلى أقصى مراميهِ الأمر الذي أربك اليهود البخلاء الماديين ، وقصرت دون إدراك أسرارهِ عقولهم الضالة ، وقلوبهم المريضة ، وأنفسهُم الأمارة بالسوء ، وسواء أكان ما قالوه اعتقادًا أم استخفافًا فقد حادوا عن الطريق وابتعدوا عن الجادة .

ومن أنواع المبالغة في الترغيب ، الترغيب في الإيمان والجهاد في سبيل الله نحو قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنلِّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٢)

كان العرب يُسَرُّون لهذه الكلمة " تجارة " ويضطربون لها أنى طرب ، فعليها يتكئون في معاشهم وأعمالهم ، وتمثل لهم مصدرًا حيويًا من أسباب السعة والرزق والرفاهية ، وهم يبذلون في سبيل الحصول على المزيد من التجارات الغالي والرخيص ، فإذا الكلمة ذاتها ، ترنُّ في آذانهم هذه المرة من كتابهم المقدس وتنزيلهم المعجز " تجارة " وقد سيقت في مساق الاستفهام التشويقي ، بأسلوب كله ترغيب " هل أنللكم على تجارة " من ذا الذي يسمع هذا السياق ولا يستجيب ؟ ! ، بيد أن التجارة هذه المرة مختلفة ، فالبذل فيها للمال وهو معروف ولكن ثمَّ بذل " آخر هو بذل " النفس " ، هذا هو الثمن ، أما التجارة فهي رائجة " رابحة ؛ لأنها تجارة " مع الملك وهو الضامن .. يا للتجارة الرائجة ! مال قليل مهما كثر ، ونفس " مبدولة ، وإن لم تُبذل ماتت ! وأيام قليلة معدودة ، ومتاع " محدود " معلوم " .. يترك ذلك ليكسب مقابله خلودًا دائمًا ، وملكا لا ينقطع ، ولما أن النفس البشرية مهما ارتقت فهي تسعد بالعاجل ، وتضطرب للربح القريب ، قال عز من قائل الذي يعلم سرَّ " النفس " ﴿ وأخرى تحبونها نصر " من الله وفتح " قريب " وبشر المؤمنين ﴾ .

(١) انظر الكشاف ٤ / ١٠٧

(٢) السياق الكامل للآيات " يأيتها الذين آمنوا هل أنللكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بآموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر " من الله وفتح " قريب " وبشر المؤمنين " الصف ١٠ - ١٣

فأي تشويق بعد هذا وأي إغراء فاق هذا !

واللافت في هذا التعبير الجمالي : استخدام لون آخر للتشويق إضافة إلى الاستفهام ألا وهو " الفصل والوصل " وذلك بين الجملتين : يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تتجيبكم من عذاب أليم — تؤمنون بالله " حيث انفصلت الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المترقب ، ثم يجيء الجواب بعدما تهيأت النفوس ، واشربت الأسماع ، وتمهّدت . . . تؤمنون بالله ورسوله ثم أعقب ذلك الجملة التالية بالوصل .. وتجاهدون ، وذلك لأنه هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة فما أجمل نظم القرآن وأعجبه !

ومنه المبالغة في التهكم والاستهزاء نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ (١)

سؤالان في غاية التهكم ، لك أن تتصور صورة هذه الأصنام والطعام ملقى أمامها ؛ فقد كان القوم قد وضعوا هذا الطعام قربانًا لتبارك لهم فيه على زعمهم ، فلما دخل إبراهيم عليها ، وجّه إليها سؤالاً مباشراً " ألا تأكلون " ؟ .. ولم تجبه الأصنام قطعاً ، قال أبو حيان : (وعرض الأكل عليها واستفهامها عن النطق هو على سبيل الهُزء لكونها منحلة عن مرتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون . وروي : أنهم كانوا يضعون عندها طعاماً ويعتقدون أنها تصيب منه شيئاً وإنما يأكله خدمتها) (٢) .

فالسؤال للتهكم منها ؛ لأنها لا تقوى أن تقوم بما يقوم به أي إنسان فكيف تكون آلهة ؟ ! ، كذلك السؤال للتهكم منهم أنفسهم ، فهو كشف لحقيقة انخداعهم ، فهذه الأصنام دونهم مرتبة وهم أعلى منها ، فهم يقومون بما تعجز هي ان تقوم به وهو الحركة والأكل وسائر سلوك البشر فكيف يعبدونها وهي على تلك الحال ؟ ! ثم استطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية : " مالكم لا تنطقون " ؟ ولكن لا إجابة إذ لا نطق لها ولا كلام وإنما هو استمداد لعنصر التهكم وتمكين الاستهزاء ، ثم مالبت أن

(١) الصافات/ ٩١ ، ٩٢

(٢) البحر المحيط ٧ / ٣٥١

أفرغ غيظه وضيقة " فراغ عليهم ضرباً باليمين " (١) .

ومنه أيضاً : المبالغة في التفجع من رصد الأعمال التي بلغت منتهى الدقة في حفظها وإحصائها كما في قوله تعالى : ﴿ مالِ هذا الكتابِ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً ﴾ (٢) .

قال المجرمون وقد أخذتهم الدهشة والفاجعة في أن واحد ، ما شأن هذا الكتاب ، ما أعجبه ! لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا ضبطها ، وأحاط بها (عن ابن عباس : الصغيرة التيسم ، والكبيرة القهقهة ، وعن ابن جبير : القُبلة ، والزنا ، وعن غيره السهو والعمد ، وعن الفضيل : ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر . وقُدِّمت الصغيرة اهتماماً بها ، وإذا أحصيت فالكبيرة أخرى) (٣) .

فقد تكررت دلالة المبالغة في هذا السياق مرتين ، الأولى من الرصد نفسه في دقته المتناهية ، التي عُدَّت فيه الصغائر وإن تناهت في القلّة قبل الكبائر ، والأخرى من ظهور الفضائح الصغيرة التي ارتدت آثارها على وجوههم حسرة وندامة وخوفاً ﴿ ياويلتنا مالِ هذا الكتابِ ﴾ وكان مشهد الأعمال حاضراً وكاملاً في الوقت ذاته ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ ثم كان الختام العادل ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

والخلاصة : مبالغة في الحصر الدقيق المتناهي = قابلها مبالغة في الفاجعة المفرطة التي علت على وجوههم من جرّاء تلك الإحاطة البليغة بكل شيء .

ومنه المبالغة في الاستبطاء : نحو قولك : كم دعوتك؟! وأنت تعني كثيراً ما دعوتك بيد أنك لم تستجب!

(١) الصافات / ٩٣

(٢) الكهف / ٤٩

(٣) البحر المحيط / ٦ / ١٢٨

وعليه قوله تعالى : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (١) .

إنها تجربة ابتلاء شديدة ، يتعرض لها الصفة وعلى رأسهم النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة حتى وصل بهم الأمر أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله ؟ قال الزمخشري : (أي بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك ، ومعناه طلب وتمنيه واستطالة زمان الشدة وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة ، وتماديه في العظم ؛ لأن الرسل لا يقدر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم ، فإذا لم يبق لهم صبر ” حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها) (٢) .

ومنه المبالغة في الاستخفاف :

وهو من المنافقين عند نَزَلِ الْقُرْآنِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهِمْ : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ (٣) .

تلك مقولة المنافقين المعاندين على وجه الاستهزاء ، والاستخفاف ، والمبالغة في نفي أدنى تأثير للقرآن عليهم ، والتشكيك في استعلاء الإيمان بسببه ثم يأتي الجواب الحاسم : حسرة ” عليكم لقد وقع لكم التأثير ، وحدثت لكم الزيادة اللائقة بكم من حيث لا تدرون ؛ لكنها ليست زيادة إيمان وإنما زيادة كفر ونفاق . قال عز من قائل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ ، ومن النكات اللطيفة في السياق الاستفهامي أداء ” المفردات ” في التركيب لدور المؤازرة في الدلالة في الكشف عن طبيعة غرضهم : من التهوين والتشكيك والاستخفاف ، فهاهو اسم الإشارة ” هذه ” التي يُشتمُّ منها رائحة التهوين من شأن التنزيل ،

(١) تمام الآية : ” أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم من الذين خلوا من قبلكم مستهم اليأس والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ” البقرة / ٢١٤ .

(٢) الكشاف ١ / ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣) تمام السياق : ” وإذا ما أنزلت سورة ” فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض ” فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ” التوبة / ١٢٤ ، ١٢٥ .

إضافة إلى تذكير " إيماناً " حيث أسهم في هذه الدلالة من جهة التقليل والتحقيق من شأنه في نظرهم .

وأؤكد أن دلالة جزء من السياق ليس معناه إيقاف جماليات التعبير الأخرى ، فمسألة تكثيف الدلالة حول جمال الاستفهام لا يعني الغض من سائر الأدوات الفنية المنوطة بالسياق مثل أدوات : الالتفات ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتذكير ، والحذف والذكر ، والتكرار والطباق والتصوير... الخ . إن هذه النظرة القاصرة في تكثيف الدلالة حول ظاهرة فنية واحدة فقط دون الالتفات إلى سائر الظواهر الفنية الأخرى يؤدي إلى فصل مكونات التعبير اللغوي بعضها عن بعض حتى تُقضى في النهاية إلى شيء من السطحية والآلية (١) .

ومنه توظيف الاستفهام للمبالغة في الإنكار للتوبيخ والتكذيب (٢) .

نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

خطاب " على وجه الاستتكار الشديد للعرب الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله ، والمعنى أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكر واختار لنفسه — حاشا — البنات ، كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى (٤) .

ومناط المبالغة — هنا — في السياق في هذا التصور الباطل الناشيء

(١) انظر البحث البلاغي / ٢٠٠

(٢) قال الخطيب القزويني : الإنكار : إما للتوبيخ ، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون نحو : أعصيت ربك ؟ أو بمعنى لا ينبغي أن يكون ، كقولك للرجل يضيغ الحق : أنتسى قديم إحسان فلان ؟ وكقولك للرجل يركب الخطر : أخرج في هذا الوقت ؟ أتذهب في غير الطريق ، وإما للتكذيب ، بمعنى " لم يكن " كقوله تعالى : " أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً " الإسراء / ٤٠ ، وقوله تعالى : ((أصطفى البنات على البنين)) الصافات / ١٥٣ أو بمعنى " لا يكون " نحو : ((أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)) هود / ٢٨ ، وأرى أن القسم الثاني الذي هو " للتكذيب " يحمل في دلالاته — أيضاً — معنى التوبيخ وإنما هو غرام " عند القدماء بكثرة التقرعات والتقسيمات . انظر الإيضاح في علوم البلاغة — الخطيب القزويني ت ٧٣٩هـ — تحقيق د . عبد القادر حسين — مكتبة الآداب — ط الأولى ١٤١٦هـ — ١٩٩٦م / ١٧٢ .

(٣) الإسراء / ٤٠

(٤) انظر التسهيل / ٢ / ١٧٢

من تلك القسمة الضيزى بل تلك القضية الباطلة من أساسها ، فانه — عز وجل — وتبارك وتعالى مُنَزَّهُ " عن الولد ، ومن شدة غلوهم في الظلم والافتراء ، أنهم لمَّا نسبوا لله الولد ، لم ينسبوا له — سبحانه — أعز ما يحبون ، وأفضل ما يتمنون وهم الذكور ، بل نسبوا له — سبحانه — الإناث وفي هذا كذب " محض وافتراء شنيع لا يليق بذات الله عز وجل ولذا جاء السياق : " إنكم لتقولون قولاً عظيماً " .

أي عظيم النكر والشناعة ؛ لأنهم فاقوا كلَّ حدٍّ للتصور والتصديق في كفرهم وجرأتهم ووقاحتهم .

ملاحظات على دراسة أسلوب الاستفهام :

١- تمت دراسة أحد عشر نموذجًا من نماذج القرآن الكريم في الاستفهام الفني ، كان نصيب الأدوات منها : الهمزة : ستة نماذج ، وهل : نموذجان ، وما ومتى ومن : كلُّ منهم نموذج واحد .

٢- أغراض الاستفهام الفنية التي وردت منوطةً بفن " المبالغة " أي التي تحركت فيها الدلالة إلى منتهى لا منال فيما وراءه ، أو برز فيها المعنى مثيراً للفكر والخيال بما هو أغرب وأبدع هي : التقرير والتوقيف والتوبيخ والتقرير ، والالطاف في العتاب ، والترغيب في الإنفاق والترغيب في الجهاد في سبيل الله ، والتهكم والاستهزاء ، والتفجع والاستبطاء والاستخفاف والتكذيب .

وتناولت هذه الأغراض جماعاتٍ معينة : فجماعة المؤمنين كان حظهم من الأغراض : اللطف في العتاب ، والترغيب في الإنفاق والجهاد ، والتحذير من الغيبة ، واستبطاء النصر ، ولليهود التوبيخ والتقرير ، وللكفار التكذيب ، وتقرير اتساع جهنم لهم في الآخرة ، وللمنافقين الاستخفاف .

٣- ثمَّ فارق بين اصطلاح البلاغيين ، ودلالة المفسرين ، فمثلاً في قول الله تعالى : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (١)

نجد أن البلاغيين أوردوا هذا المثل تحت مصطلح " الاستبطاء " بيد أن المفسرين من شرحهم الآية ، تبذت فيها دلالات المبالغة ، قال الزمخشري في بعض عباراته تفسيراً للآية " وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة " ، " فإذا لم يبق لهم صبر " حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها " (١) وكلها كما ترى ألفاظ مرادفة للمبالغة وهذا الذي يُفسّر سبب اختياري أغراضاً محددة تلك التي اقتربت من دلالات المبالغة من جملة أغراض الاستفهام الفني الأخرى ، ويُفسّر أيضاً لم أثرت أن أضع عنوان الغرض " المبالغة في الاستبطاء " وهكذا في كل الأغراض ، لأن عمدتي في هذا ليس اصطلاح البلاغيين فقط وإنما استنباط المفسرين ، ودلالة السياق والبحث عن فحوى الآية وارتباطها بمغزى السورة .

٤- يُعدُّ أسلوب الاستفهام أغنى الأساليب الإنشائية ثراءً في نماذجه وتنوعه ودلالاته .

٥- أوكد ما ذكرته - آنفاً - أن الحديث عن فنية الاستفهام في السياق ليس معناه الغض من الأدوات الفنية الأخرى ، وإلا أدى ذلك إلى تشتيت الظاهرة البلاغية وفصل مكونات التعبير اللغوي .

٦- من أجمل وأشمل الدراسات التي قدمها القدماء لدراسة الاستفهام في البلاغة العربية دراسة الخطيب القزويني في الإيضاح (٢) .

٧- تنشأ المبالغة - أحياناً - من الأداة نفسها كما في قوله تعالى : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (٣) وأحياناً تتدرج في سياق التركيب الاستفهامي من فحوى الدلالة ، وهنا يكون الاستفهام له دور " أيضاً في المبالغة ، ولكن التركيب بأدواته ودلالاته يكون هو المعتمد .

٨- من النكات اللطيفة في أسلوب الاستفهام حملُ السياق على الحقيقة أو المجاز قد يؤدي إلى قضية خطيرة في الاعتقاد هي قضية الكفر

(١) انظر الكشاف ١ / ١٢٩ ، ١٣٠

(٢) انظر الإيضاح للخطيب القزويني ١٦٥ / ١٧٦

(٣) البقرة / ٢١٤

أو الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضًا حسنًا ﴾ (١) .

وإني لا أريدُ أن أجُرَّ التذوق الجمالي إلى دائرة الاعتقاد ، بيد أن هذا هو الذي حدث ، فبينما حمل المؤمنون السياق على المجاز وهذا أبو الدحداح يتصدق بحديقته وبها ستمائة نخلة وقرًا لما فهمه من الدلالة المجازية المرغبة في الإنفاق ، نجد أن فنحاص أو حيي بن أخطب — قاتلها الله — فهم السياق على الحقيقة (أن الله فقير ” يحتاج إلى القرض) — حاشا لله — فأدى به إلى الكفر — عياذًا بالله — كما بينت آنفًا .

ب- توظيف الأمر للمبالغة (٢)

الأمر : هو طلب حصول الفعل على جهة الإلزام والاستعلاء (٣) .
والأصل في صيغة الأمر أن تفيد الإيجاب ، بيد أنه يخرج — أحيانًا عن مقتضى الظاهر متعديًا الدلالة السطحية إلى دلالة أخرى عميقة ، ينتقل خلالها السياق من المعنى المباشر إلى المعنى المثالي ، حيث الدلالات المجازية لأسلوب الأمر ومنها : التهديد ، والتعجيز ، والتسخير ، والإهانة ، والتسوية ، والتمني ، والدعاء ، والالتماس ، والاحتقار إلخ .

ومن الدلالات المجازية التي برزت فيها " المبالغة " : التعجيز (٤) :

(١) البقرة / ٢٤٥

(٢) رجعت في هذا الأسلوب إلى الكتب الأبية : البرهان في علوم القرآن ٢ / ٣٧٤ والاتقان ٣ / ٢٤٢ وفن البلاغة / ١١٦ ، وبيدع التراكيب ٣٠٦ وعلوم البلاغة / ٨٧ والبلاغة العربية / ٢٩٢ ، ودراسات في المعاني والبيدع / ٨٠ بالإضافة إلى كتب التراث في البلاغة العربية .

(٣) وله صيغ " أربع :

(أ) فعل الأمر نحو قوله تعالى : " واصنع الفلك بأعيننا ووحينا " هود / ٣٧ .

(ب) المضارع المقترن بلام الأمر نحو : " لئنفق ذو سعة من سعته " الطلاق / ٧ .

(ج) اسم فعل أمر نحو قوله تعالى : " عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " المائدة / ١٠٥ .

(د) المصدر النائب عن فعله نحو قوله تعالى : " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا " النساء / ٣٦ .

(٤) قال د . محمد عبد المطلب : (التعجيز : وسياقه الخارجي يعود إلى المتلقي الداخلي الذي يدعي أن في وسعه وطاقته أن يفعل شيئًا وهو محال ، في مثل قولنا لشخص " احمل الجبل " الذي يرتد في العمق إلى " احمل الجبل وهو محال " وعلى هذا قوله تعالى للكافرين : " قاتو بسورة من مثله " البلاغة العربية / ٢٩٤ .

كقولك لمن يدّعي أمرًا تعتقد أنه ليس في وسعه (١) : افعله : وأنت توقن تمامًا أنه من المستحيل أن يفعله ، وعليه قوله تعالى : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ (٢) أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن في بلاغته وفصاحته واجمعوا ما شئتم من أعوانكم ونصرائكم ، ولكن هذا أمر مُحال والمحال ضرب " من المبالغة ، إذ إن التحدي لم يكن في القرآن كله ولا نصفه بل في سورة واحدة = الغاية في القلة ، فبلغوا الغاية في العجز " فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة 'أعدت للكافرين' وقد تعددت لوحات المبالغة في هذا السياق على النحو التالي :

أولاً : في تخصيص جزء مُحدد من المُتحدّي به وهو : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ حيث بلغ النهاية في أدنى الاختيار (٣) .

ثانياً : التحدي ليس قائماً على شخص واحد أو جماعة واحدة ، بل المطلوب هو أن يستعينوا - على سبيل المبالغة - بمن شاءوا من النصراء والأعوان .

ثالثاً : " الشهداء " جمع شهيد للمبالغة كعليم وعلماء (٤) وهم الفصحاء البلغاء المجيدون حوَك الكلام من النُّثَار والنُّظَام ، والمتقلبون في أفانين البيان والمشهود لهم في ذلك بالإحسان (٥) .

رابعاً : هذا التحدي ظل قائماً في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبعدها ولا يزال قائماً حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة وعلى الرغم من طول هذه الفترة إلا أنه لن يُفلح محاولاتهم بإفادة قوله عز من قائل : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ! ﴾

(١) انظر الإيضاح / ١٧٧

(٢) البقرة / ٢٣ وتَمَام السياق القرآني : " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة 'أعدت للكافرين' البقرة / ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سياقات التحدي بالقرآن في آياته ثلاث :

١- " فأتوا بسورة من مثله " البقرة / ٢٣ .

٢- " فاتوا بعشر سور مثله مفتريات " هود / ١٣ .

٣- " على أن يأتيوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله " الإسراء / ٨٨ .

ولا شك أن أدنى تحدي كان هو السياق الأول الذي نحن بصدده .

(٤) انظر البحر المحيط / ١ / ٢٤٢ .

(٥) انظر البحر المحيط / ١ / ٢٤٣ .

واللافت في السياق تتكبير "سورة" المفيد للشمول والعموم ليؤازر دلالة المبالغة ومعنى التحدي أي فأتوا بأي سورة شئتم : مكية أو مدنية ، مجملة أو مفصلة ، قصيرة أو طويلة ، قال سيد قطب : (والتحدي هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة . وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل إلى الممارسة فيها . ولقد كان المجال أمامهم مفتوحًا ، فلو أنهم جاءوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع .. على أن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء ، وكل من له خبرة بتصورات البشر للوجود وللأشياء ، وكل من له خبرة بالنظم والمناهج والنظريات النفسية أو الاجتماعية التي ينشئها البشر ... لا يخالجه شك في أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات كلها شيء آخر ليس من مادة ما يصنعه البشر ، والمراد في هذا لا ينشأ إلا عن جهالة لا تميز ، أو غرض " يلبس الحق بالباطل " (١) .

ومنه المبالغة في التهديد نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ ﴾ (٢) .

أي إن لم تنتهوا عن الربا حوربتم ومعنى فأذنوا : اعلموا (والظاهر أن الخطاب في قوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ هو لمن صدرت الآية بذكره ، وهم المؤمنون ، وقيل : الخطاب للكفار الذين يستحلون الربا ، فعلى هذه المحاربة ظاهرة ، وعلى الأول فالإعلام أو العلم بالحرب جاء على سبيل المبالغة في التهديد دون حقيقة الحرب ، كما جاء " من أهان لي وليًا فقد أذني بالمحاربة وقيل : المراد نفس الحرب) (٣) .

وقال الصاوي على الجلالين (لكم فيه تهديد شديد .. ولما نزلت قالوا لا يد لنا بحربه) (٤) .

واللافت في السياق تتكبير " حرب " لقصد التفخيم والتعظيم لتسهم في

(١) الظلال ٤٨ / ١ ، ٤٩

(٢) تمام السياق القرآني : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذرُوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوسُ أموالكم لا يظلمون ولا تُظلمون " البقرة / ٢٧٨ ، ٢٧٩

(٣) البحر المحيط ٢ / ٣٥٢ .

(٤) الصاوي على الجلالين ١ / ١١٧

تكثيف دلالة المبالغة التي تؤدي إلى شدة التنفير من الربا والعمل على
المسارعة في التخلص منه ، ونبذه بالكلية .

ومنه في التهديد أيضاً قوله تعالى : ﴿ اَعْمَلُوا مَا سُئِمْتُمْ ﴾ (١) .

أي اعملوا ما تشاءون في هذه الحياة وهو وعيد " وتهديد لا إياحة ،
بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ (٢) .

ومنه المبالغة في الإهانة (٣) نحو قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الكَرِيمُ ﴾ (٤) . يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ - وَقَفًا لسياق الآيات - خذوا هذا الفاجر
العنيد فسوقه وجروه من تلايبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم المستعر ثم
صبوا فوق رأسه الحميم المتناهي حره ثم يقال له على سبيل التهكم
والإهانة : ذُقْ هذا العذاب فإنك أنت المعزَّرُ المُكْرَمُ قال عكرمة : التقى النبي
- صلى الله عليه وسلم - بأبي جهل فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : إن
الله أمرني أن أقول لك : ﴿ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴾ (٥) . فقال : بأي شيء تهددني
! و الله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً (حاشا لله) ، إني لمن
أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر واذلّه (٦) ونزلت
هذه الآية (٧) .

إنه جانب نفسي ، وبعُد " معنوي ، فبعد أن لقي أشد أنواع الإيلام
والتعذيب الحسي البدني ، كان هناك لون " آخر ينتظره من العذاب إنه
التأنيب النفسي والإيلام المعنوي ، إنها الإهانة بلا كرامة والجفوة بلا لين

(١) تمام الآية " إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير " أم من يأتي أمناً
يوم القيامة * اعملوا ما سُئِمْتُمْ إنه بما تعملون بصير " فصلت / ٤٠

(٢) انظر البحر المحيط ٧ / ٤٧٨

(٣) قال د . محمد عبد المطلب : ((الإهانة : وسياقها يرتد إلى المتلقى الداخلي أو المباشر ، من حيث
يكون المقصود تصغير شأنه ، وقلة الميلاة به ... نحو قوله تعالى : (كونوا حجارة أو حديدًا)
الإسراء / ٥٠))

(٤) الدخان / ٤٩ ، وتمام السياق القرآني : " خذوه فاعطوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من
عذاب الحميم * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ " الدخان / ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

(٥) القيامة / ٣٤

(٦) وضع ابن مسعود قدمه على وجه أبي جهل يوم بدر وقال أبو جهل وهو مذلول مهزوم لابن مسعود :
" لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم . فأصابه اللذ في الدنيا والآخرة .

(٧) انظر القرطبي ٩ / ٦٢٠٠

أو هوادة ، إنه جزاء ” لأقوالهم للمتغرطة وفي الوقت ذاته جزاء أعمالهم : الجزاء من جنس العمل ، فكم من مؤمن سخرُوا منه وكم من جماعة مؤمنة ضحكوا منها ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ (١) فيالسخرية من الكافرين ! ما أعظم إهانتهم ، وأفدح خسارتهم وأشنع فعالهم !

ومين المبالغة في التواضع قوله عز من قائل : ﴿ وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ (٢)

والمعنى : ألن جانبك وتواضع لهما بتذل وخضوع من فرط رحمتك وحدبك عليهما قال أبو حيان : (ثم أمره تعالى بالمبالغة في التواضع معهما بقوله : " وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة ") (٣) . وقال ابن جزي : (فهو كقوله : " وأخفض جناحك للمؤمنين ") (٤) وإضافته إلى الذل مبالغة في المعنى كأنه قال الجناح الذليل ، (ومن) في قوله " من الرحمة " للتعليل ، أي من أجل إفراط الرحمة لهما والشفقة عليهما) (٥) بيد أنه يحسن بنا أن ندرك العلاقة بين خفض جناح الطائر والتواضع ، فمن شأن الطائر — كما يذكر أبو السعود (٦) خفض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها ، وقد أمر الولد بالتواضع لهما تواضعاً يبلغ حد الذل لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد ؛ لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما فإن بدا منهما كبر " وحاجة " فيبغى أن يقابلا بالمبالغة الشديدة في الذل والتواضع المبين في بذل العون ؛ لأنهما ما اعتادا أن يمدّا أيديهما للمساعدة وما ألقا أن يبوحا بالمعاونة ، وهما اللذان عاشا أبد الدهر يُعطيان ويمنحان ويُشفقان !

ويُفسّر " ابن عاشور " العلاقة بين خفض جناح الطائر والتواضع

(١) المطففين / ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) الإسراء / ٢٤ ، وفي اللسان : (أي تواضع لهما ولا تتعزز عليهما) ١٢١١ / ٢ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٥

(٤) الحجر / ٨٨

(٥) التسهيل ٢ / ١٧٠ ، وانظر كذلك الكشاف ٢ / ٣٥٧ ، والبيضاوي ١ / ٥٦٨ .

(٦) انظر أبا السعود ٥ / ١٦٦

يقوله : (وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عندما يعثره خوف من طائر اشد منه إذ يخفض جناحه متذللاً) (١) ويبدو أن رأي أبي السعود أرجح من رأي " ابن عاشور " في دلالة الخفض ، فبينما يرى الأول " الخفض " لداعي الشفقة ، والحدب ، والتربية ، يراه الآخر لداعي الخوف ، والأول الصق بالدلالة وأوفق .

ومن دلالات الأمر المجازية : الدعاء ، إذا استعمل في طلب الفعل على سبيل التضرع نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ (٢)

أي اصعب علينا الصبر صبراً حتى يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك ، ومناط المبالغة في لفظ " الإفراغ " حيث شدة الإنزال للصبر وقوته قال الشريف الرضي : (وفي قوله أفرغ زيادة فائدة على قوله : أنزل ؛ لأن الإفراغ يفيد سعة الشيء وكثرتة ، وانصبابه وسرعته) (٣) وقال أبو السعود : (وفي التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال وإيثار الإفراغ الموعب عن الكثرة وتتكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة ما لا يخفى) (٤) وفي لفظ " الإفراغ " أيضاً شعور " بمدى الخوف ، الذي علق بالمؤمنين فهم الذين قالوا " لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده " (٥) فاحتاجوا لكي يثبتوا أمام العدو إلى صبر غير عادي ، صبر بلا حدود ، صبر مكثف " فهو الوحيد الذي باستطاعته أن ينتشلهم بما هو فيه من الخوف ، ولذا تضرعوا في طلبهم ، والتمسوا ثلاثة مطالب فيها الخلاص مما ألم بهم ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامنا وانصُرنا على القوم الكافرين ﴾ (٦)

١- الصبر الشديد .

٢- تثبت الأقدام حتى لا يفروا .

٣- الغاية المبتغاة : النصر على الأعداء .

(١) التحرير والتوير مجلد ٧ / ١٥ / ٧٠

(٢) البقرة / ٢٥٠ ، في اللسان : (الإفراغ : الصب ، وفرغ عليه الماء ، وأفرغه : صببه ، حكى الأول : تغلب وانشد : فرغن الهوى في القلب ثم سقته صبابات ماء الحزن بالأعين النجل .

وفي التنزيل : " ربنا أفرغ علينا صبراً " ، أي اصيب (لسان العرب / ٥ / ٣٣٩٦ .

(٣) تلخيص البيان / ٣٨

(٤) أبو السعود / ١ / ٢٤٤

(٥) البقرة / ٢٥٠

(٦) البقرة / ٢٤٩

ومن جميل الدعاء الذي بدأ فيه إظهار اللُجأ وصدق التضرع ، مع ما فيه من تحقق الإجابة دعوة نبي الله إبراهيم — عليه السلام — التي ما زالت شاهدة أمام العيان إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله في قوله تعالى :

﴿ فَاجْعَلْ أَفئدةً من النَّاسِ تَهْوِي إليهم وارزقهم من الثَّمراتِ لعلهم يشكرون ﴾ (١) .

ومن أسرار التركيب : لفظ " أفئدة " ولم تأت " قلوبًا " ؛ لأن الأفئدة تحمّل معنى التوقد ، ولفظ " تهوي " للجد والإسراع ، لأنه قد يُوجد "أناسٌ" ذوو أفئدة مُشتاقة بيّد أنهم غير جادين ولا نشطين ، والتعددية بحرف الجر " إليهم " لتضمين الفعل " تهوي " معنى تميل وتحن وتترع ، ووجود حرف الجر (من) في (من الناس) للتبعيض قال الزمخشري : (ويدل عليه ما روي عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لرحمتكم عليه فارس ، والروم وقيل لو لم يقل (من) لآزدهموا عليه حتى الروم والترك والهند ويجوز أن يكون (من) للابتداء (٢) كقولك القلب مني سقيم تريد قلبي ، فكأنه قيل أفئدة ناس) (٣) .

ومصدر المبالغة في روعة التصوير " أفئدة " مُحطَّقة " ، تلك الصورة الاستعارية العجيبة المُبيّنة للشوق المهاجر والحنين المغادر ، إذ المقصود الناس القاصدة بيت الله الحرام (وَخُصَّتْ الأفئدة بالذكر ؛ لأن القلوب سلاطين الأعضاء ، فإذا حنَّت إليهم القلوب ، سعت لهم الأجسام

(١) تمام الآية " ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " إبراهيم ٣٧ .

قال الراغب الأصفهاني : (الفؤاد كالقلب لكن يقال له : فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التوقد : أي التوقد ، يقال : فادت اللحم : شويته ولحم فئيد : مشوي) المفردات / ٦٤٦ وقال عن " تهوي " (الهوي : سقوط من علو إلى سفلى ... والهوي : ذهاب في انحدار ، الهوي : ذهاب في ارتفاع) المفردات / ٨٤٩ وقال ابن منظور : (قوله عز وجل : " فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات " فيمن قرأ به إنما عداه بالي لأنه فيه (معنى تميل) ، والقراءة المعروفة تهوي إليهم أي ترتفع والجمع أهواء ، وقد هويه هو ، فهو هور ، وقال القراء : معنى الآية يقول : اجعل أفئدة من الناس تريدهم ، كما يقول : رأيت فلانًا يهوي نحوك ، معناه يريدك ، قال : وقرأ بعض الناس تهوي إليهم ، بمعنى تهواكم) اللسان مادة (ه - و - ي) .

(٢) فسّر " ابن عاشور " (من) تفسيرًا ثالثًا بأنها " بيانية " و " من " بيانية لا تبعيضية ، إذ لا طائل تحته . والمعنى : فاجعل أناسًا يقصدونهم بحبات قلوبهم (التحرير والتنوير مجلد ٧ / ١٣ / ٢٤٢ .

(٣) الكشاف ٢ / ٣٠٤

قَهْرًا (١). أضف إلى هذا عطاء الفعل المضارع " تَهْوِي " في تجدهه واستمراره ، لتستحضر تلك الصورة على الدوام ، فهي ممتدة بلا توقف ، لأنها ليست مختصة بزمان . دون زمان ، ولا بأناس . دون أناس .

ملاحظات على دراسة أسلوب الأمر :

١- تمت دراسة سبعة نماذج من نماذج القرآن الكريم في الأمر الفني كلها جاءت على صيغة واحدة هي صيغة فعل الأمر .

٢- أغراض أسلوب الأمر التي وردت هي : التعجيز ، والتهديد ، والإهانة ، والتواضع والدعاء ، أما التعجيز والإهانة والتهديد فلجماعة المكذبين وأما التواضع والدعاء فلجماعة المؤمنين .

٣- من سياقات الأمر : الدعاء : وذلك إذا استعمل على سبيل التضرع والخضوع ، فيخرج كلية عن نطاقه الأصلي القائم على الاستعلاء إلى نطاق تقابلي تمامًا مبناه على التذلل والتواضع ، وقد جاء في سياقين سياق من جماعة المؤمنين " ربنا أفرع علينا صبرًا " (٢) والسياق الآخر من نبي الله إبراهيم - عليه السلام - " فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ... " (٣) .

٤- في قوله تعالى " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " (٤) أمر حقيقي ، واجب الامتثال ، بيد أنه صار مجازيًا عن طريق التصوير الرائع ، وإبداء هذا التواضع الرفيع .

(١) الصاوي على الجلالين ٢ / ٢٤٢ .

(٢) البقرة / ٢٥٠ .

(٣) إبراهيم / ٣٧ .

(٤) الإسراء / ٢٤ .

النهي : هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء كالأمر ، وله صيغة واحدة ، هي الفعل المضارع المقترن بلا الناهية في كل صور النهي الحقيقية والمجازية ^(١) .

ومن دلالاته الجمالية القائمة على التجوز والانتساع : التهديد والنصح والإرشاد والتوبيخ والتأنيب والتمني والتأييس والالتماس والدعاء الخ .

ومن تراكيبه الفنية البليغة التي تتركها فطنة القارئ ، ويستشعرها بحسّ اللغوي ، وتذوقه الجمالي للآيات القرآنية توظيفه للمبالغة في الزجر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ^(٢)

أي لا يسفك بعضكم دم بعض ، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر قال الأوسي : (" لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ " أي لا يقتل بعضكم بعضًا ، وعبر عن البعض المنهي عن قتلهم بالأنفس للمبالغة في الزجر " وقيل : المعنى لا تخاطروا بنفوسكم في القتال فتقاتلوا من لا تطيقونه) ^(٣) .

ثم جاءت الفاصلة التعليلية لعدم القتل ، سواء أكان للغير أو للنفس أو حتى لمجرد تعرضها للمخاطر المهلكة : " إن الله كان بكم رحيمًا " .

قال أبو حيان : (حيث نهاكم عن إتلاف النفوس .. وبين لكم جهة الحل التي ينبغي أن يكون قوام الأنفس وحياتها بما يكتسب منها ، لأن طيب الكسب ينبي عليه صلاح العبادات وقبولها .. وقيل : رحيمًا حيث لم يكلفكم قتل أنفسكم حين التوبة ، كما كلف بني إسرائيل قتلهم أنفسهم ،

(١) انظر الإيضاح / ١٧٨ .

(٢) النساء / ٢٩ .

(٣) روح المعاني ١٦ / ٥ ، والخلاصة : انقسمت أقوال المفسرين حيال هذه الآية إلى ثلاثة أقسام : الأول : وهو الذي أجمع عليه المفسرون وعليه مدار المبالغة لا يقتل بعضكم بعضًا . انظر التسهيل ١٣٩ / ١ ، والثاني : قتل النفس " الانتحار " وهو ظاهر اللفظ وقد حملها عمرو بن العاص على ذلك ، ولم ينكره رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمعه . انظر التسهيل ١٣٩ / ١ ، والبحر المحيط ٣ / ٢٤٢ ، والثالث : بمعنى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فتقاتلوا من لا تطيقون قتاله . انظر البحر المحيط ٣ / ٢٤٢ ، وروح المعاني ١٦ / ٥ .

وجعل ذلك توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم (١).

ومنه الإهانة البالغة كما في قوله تعالى : ﴿ اٰخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تَكَلْمُونَ ﴾ (٢) وهذا جواب من رب العالمين على طلبهم في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (٣).

وفي السياق القرآني مزج " بين الأمر والنهي ، وهما دالان معاً على مدى الإهانة والإبعاد للكافرين ، يقول " الزمخشري " مبيئاً تلك المهانة المزلّة المصوّرة بحالة الكلب المنزجر المذلّول ثم هذا السكوت المخزي سكوت الأذلاء المهينين : { اخسئوا فيها } ذلوا فيها ، وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت ، يُقال خساً الكلب وخساً بنفسه (ولا تكلمون) في رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف ، قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون { (٤).

وسبيل المبالغة فيما وصل إليه الكافرون من الذلة حيث بلغوا الغاية في المهانة فما أضحت تصدر منهم حروف .. ولا كلمات ، وإنما أصوات منكرة شهيق وزفير وعواء .. أرأيت كيف بلغ بهم الحال المشينة ، ووصل بهم الأمر المهلك ، وحطت بهم أعمالهم الرديئة فكانوا من الخاسرين ؟ !

(١) البحر المحيط ٣ / ٢٤٢ .

(٢) المؤمنون / ١٠٨ ، قال ابن منظور : (خساً : الخاسئ من الكلاب والخنازير والشياطين : البعيد الذي لا يُشرك أن يدنو من الإنسان . والخاسئ : المطرود . وخساً الكلب يخسؤه خساً وخسوءاً ، فخساً واتخساً : طرده . قال : كالكلب إن قيل له اخساً اتخساً أي إن طردته انطرد . الليث : خسات الكلب أي زجرته فقلت له اخساً ، ويقال : خساته فخساً أي أبعده فبعده .. وقال الزجاج في قوله عز وجل : " قال اخسئوا فيها ولا تكلمون " : معناه تباعد " سَخَطَ . وقال الله تعالى لليهود : " كونوا قردة خاسئين " البقرة / ٦٥ ، أي مدحورين وقال الزجاج : " مَبْعَدِينَ) لسان العرب ٢ / ١١٥٥ ، ١١٥٦ مادة خ س أ ، وقال الراغب الأصفهاني : { خسات الكلب فخساً ، أي : زَجَرْتَهُ مُسْتَهِينًا به فانزجر ، وذلك إذا قلت له : اخساً ، قال تعالى في صفة الكفار : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) { المفردات / ٢٨٢ .

(٣) المؤمنون / ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٤) الكشف ٣ / ٥٧ ، وانظر التسهيل ٣ / ٥٧ ، والبحر المحيط ٦ / ٣٨٩ .

ومنه النهي عن المبالغة في الاتفاق والإمساك نحو قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (١) .

فتمَّ نهي وقع مرتين الأولى عند الإمساك على طريقة التصوير :
" لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " حيث جاء النظم القرآني مصورًا البخل المقتر بمن حبست يده عن الإعطاء ، وشدَّت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مدها ، فتمَّ وصفان ، كلُّ منهما كافٍ لإظهار البخل ، وهو أن يده مضمومة ومغلولة أيضًا فلما اجتمع على هذا النحو ، دلالة قاطعة على منتهى البخل ونهاية الإمساك ومن هنا تمثلت المبالغة في الوصول بالمعنى إلى أقصى مراميه من البخل ، ثم في التصور البديع لصورة هذا البخل في غل يده ، وضمها إلى عنقه ، ثم أخيرًا في البعد النفسي لصورة هذا الشخص وإبراز أبعاده الداخلية في صورة المحسوس المشاهد للعيان . قال ابن عاشور عن تلك الصورة (هو تمثيل " مبني" على تخيل اليد مصدرًا للبذل والعطاء ، وتخيل بسطها كذلك ، وغلها شحًا ، وهو تخيل معروف " لدى البلغاء والشعراء .. قال الأعشي :

يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ فَكَفٌّ مَقْبَدُهُ " . . . وكفُّ إذا ما ضُنَّ بالمال تتفقُ

.. فجاء التمثيل في الآية مبنيًا على التصرف في ذلك المعنى بتمثيل الذي يشح بالمال بالذي غلَّت يده إلى عنقه ، أي شدَّت بالغل ، وهو القيد من السير يُشدُّ به يد الأسير ، فإذا غلَّت اليدُ إلى العنق تقدَّر التصرف بها

(١) الإمراء / ٢٩ ، قال ابن منظور : (" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " تأويله لا تمسكها عن الإنفاق ، وقد غلَّه يغلُّه) لسان العرب مادة (غ . ل . ل) . وقال الراغب الأصفهاني : (الغلُّ : مختصٌ " بما يقبَّد به فيجعل الأعضاء وسطه ، وجمعه أغلال ، وغلَّ فلان " : قبَّد به .. وقيل للبخل : هو مغلول اليد) المفردات / ٦١٠ .

فتعطل الانتفاع بها فصار مصدر البذل مُعطلاً فيه (١) .

النهى الآخر عند الإنفاق " ولا تبسطها كل البسط " هذه هي الصورة الأخرى المقابلة ، إنها صورة المُسرف المُبذر ، ومنشأ المبالغة فيه أن يبلغ البسط عنده الغاية والنهاية " كل البسط " أي البسط كله الذي لا يسقط بعده (٢) وقال ابنُ جزي : (استعارة في معنى غاية الجود) (٣) حيث ترسم هذه الصورة في ذهنك لهذا المُسرف في صورة من بسط يده في أوسع ما يكون البسط حيث لم تُعدْ يده تُمسك شيئاً .. أو تحفظ شيئاً !

ثم تجيء النهاية الحتمية لكلا الفريقين ولكلتا الحالتين " فتتعد ملوماً محسوراً " فالمصير المنتظر الذم والحسرة ، وفيه توجهٌ للتوسط بين الإفراط والتفريط فخير الأمور الوسط (٤) .

(١) التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٥ / ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٥ / ٨٤ .

(٣) التسهيل ٢ / ١٧٠ .

(٤) وهو المطابق لقوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يُقتروا وكان بين ذلك قواماً) الفرقان / ٦٧

ومن جمال التركيب هذه المفارقة البديعة بين حالسيّ المُسرف والمُقتر ، بإبراز المعنى بالتضاد عن طريق تصوير المعنوي بالمحسوس المُسَاهَد (وقد طابَق بينهما أبو تمام) ، فقال في المعتصم :

تعودُ بسُط الكفِّ حتى لو أنه . : . نثاها لقبضٍ لم تُجبه أنامله (١)

ومن المبالغة في النهي قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٢) .

أي لا تدنوا من الزنا وهو أبلغ من " لا تزنوا " لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنا كاللمس ، والقبلة ، والنظرة ... الخ مما يجر إلى الزنا فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل (٣) وفي التركيب يبدو التكتيف ظاهراً حول خطورة جريمة الزنا ، التي من أجلها تم النهي عن كل ما يقرب إليها أو يدعو إلى فعلها سداً للزرائع ومبالغة في عدم اقتراب الذنب .

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٨ .

(٢) الإسراء / ٣٢ .

(٣) النهي عن قربان فعل الشيء أبلغ من النهي عن فعله ، وجاء ذلك في القرآن كثيراً مثل :

١ - " ولا تقربا هذه الشجرة " البقرة / ٣٥ ، الأعراف / ١٩ .

٢ - " تلك حدود الله فلا تقربوها " البقرة / ١٨٧ .

٣ - " فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن " البقرة / ٢٢٢ .

٤ - " لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى " النساء / ٤٣ .

٥ - " ولا تقربوا القواض " الأنعام / ١٥١ . (== بعده ٦)

ملاحظات على دراسة أسلوب النهي :

- ١- تناولت الدراسة ستة نماذج من نماذج القرآن الكريم في النهي الفني (الحقيقي والمجازي) كلها جاء على الصيغة الوحيدة ، الفعل المضارع المُصَدَّر بـ (لا الناهية) .
- ٢- أغراضه التي وردت هي : الزجر ، والإهانة ، والتوبيخ ، والنصح ، والالتماس ، والنهي الحقيقي عن الزنا بالمبالغة في الابتعاد " ولا تقربوا " . أما الزجر والنصح والنهي الحقيقي فللمؤمنين ، وأما الإهانة والتوبيخ للكافرين .
- ٣- السكاكي ومن بعده الخطيب القزويني في أسلوب الأمر تحدثا بالتفصيل عن وظائفه وتراكيبه المجازية ، أما هنا في أسلوب النهي فقد أغفلا الحديث عن المعاني الفنية للنهي .
- ٤- النهي الحقيقي لا يخلو من الفنية والمبالغة في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا ﴾ (١) . كما بينتُ آنفًا .
- ٥- من التراكيب الفنية التي وردت في أسلوب النهي : المزاوجة بين الأمر والنهي كما في قوله تعالى :

٦- (==) " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن " الأنعام/ ١٥٢ ، الإسراء/ ٣٤ .

٧- " إنما المشركون نجس " فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " التوبة / ٢٨
انظر دراسات لأسلوب القرآن ٢ / ٥٢٨ .

(١) الإسراء/ ٣٢ .

﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ (١) إعلاناً للإهانة البالغة للكافرين حيث ينزجرون انزجار الكلب ويسكتون سكوت الأذلاء .

كذلك المفارقة العجيبة بين المسرفين والمقترين في قوله تعالى :

﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً ﴾ (٢)

د- توظيف التمني للمبالغة :

التمني : هو طلب حصول شيء محبوب لا يتوقع حصوله : إما لكونه مستحيلًا ، وإما لكونه بعيد التحقق والمنال قال الخطيب القزويني عن التمني : { وأنواعه كثيرة (يقصد الإنشاء الطلبي) منها التمني ، واللفظ الموضوع له : " ليت " ، ولا يُشترط في التمني الإمكان ، تقول : ليت زيدًا يجيء ، وليت الشباب يعود } (٣) وذكر ابن هشام أن التمني (يتعلق بالمستحيل غالبًا كقوله :

فيا ليت الشباب يعود يوماً . فأخبره بما فعل المشيبُ

وبالممكن قليلاً) (٤) . ومن نماذج ما هو مستحيل قوله تعالى :

﴿ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزًا عظيمًا ﴾ (٥) لأن الزمن قد مضى ومن المستحيل إرجاعه وكذا قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنتُ ترابيًا ﴾ (٦) ومما هو بعيد التحقق والمنال قوله تعالى :

﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴾ (٧) فإن كان منتظر الحصول على قريب الوجود كان ترجيًّا وليس تمنياً ويُعبَّر فيه بعسى ولعل .

(١) المؤمنون / ١٠٨ .

(٢) الإسراء / ٢٩ .

(٣) الإيضاح / ١٦٤ .

(٤) مغني اللبيب / ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٥) النساء / ٧٣ .

(٦) النبا / ٤٠ .

(٧) القصص / ٧٩ .

وقال الراضي .. : وفي " ليت " معنى تمنيت وفي " لعل " معنى ترجيت . وماهية التمني غير ماهية الترجي وهي استعمال التمني في الممكن والمحال ، واختصاص الترجي بالممكن ؛ وذلك لأن ماهية التمني محبة حصول الشيء سواء كنت تنتظره وترتقب حصوله أو لا . والترجي : ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله فمن ثم لا يُقال : لعل الشمس تغرب ، فيدخل في الارتقاب الطمع والإشفاق . فالطمع : ارتقاب شيء محبوب نحو : لعلك تعطينا . والإشفاق : ارتقاب المكروه نحو : لعلك تموت الساعة . وفي المطول : " يجب أن لا يكون للتمني توقع وطماعية في وقوعه وإلا صار ترجياً " (١) .

ومناط المبالغة في التمني ، إنما يتأتى من قيل تصوير رغبة المتمني ، إذ يُجسد التمني أقصى حاجاته وآماله .

وألفاظ التمني أربعة : واحدة أصلية وهي " ليت " — وقد مثلت لها ، وثلاثة نائبة عنها هي :

١- هل : نحو قوله : ﴿ فِهلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءِ فِيشْفَعُوا لَنَا ﴾ (٢) ويبرز بها المتمني في شكل المستفهم عنه الذي لا يجزم بانتقائه .

٢- لو : نحو قوله تعالى : ﴿ فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنین ﴾ (٣)

وذلك لأن معنى (لو) الذي وضعت له في أصل اللغة أن تكون حرف امتناع لامتناع ، أي : امتناع الجواب لامتناع الشرط ، فأبرز التمني وهو الأمر الممكن ، وإن كان بعيد المنال في صورة الأمر الممتنع تماماً مبالغة في المعنى وإشعاراً بعزّة المتمنى .

٣- لعل : ويتمنى بها إذا كان المرجو بعيداً ميئوساً من حصوله ، فصار شبيهاً بالمُحالات والممكنات التي لا طمع في حصولها نحو قوله تعالى :

(١) انظر دراسات لأسلوب القرآن ٧٠٣ / ٢ .

(٢) الأعراف / ٥٣ .

(٣) الشعراء / ١٠٢ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ (١).

إضافة إلى هذه الأدوات يتمنى بهلا وإلا ولولا ولوما ، وهي ألفاظ
مركبة من هل ولو مع لا وما .

وتتقل دلالة التمني من المستوى السطحي إلى المستوى العميق ،
فتمنح المتلقي مزيدًا من الدلالات الفنية ، والتراكيب البلاغية وتتأزر دلالة
التمني مع دلالة المبالغة لا سيما في منطقة المستحيل والأمر الممتنع وكذلك
الأمر بعيد المنال حيث التصورات المتناهية في التخيل سواء أكانت ممكنة
أو غير ممكنة ، وكلاهما أمر " مثير للخيال ، مغنٍ للوجدان ، مُحركٌ
للأذهان من خلال إثمار تلك الأحداث اللافتة والغنية بالجدب والحيدة من جهة
والخرق للعادة من جهة أخرى .

ومن صورهِ البديعة قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ (٢) .

انتقلت دلالة " لعل " — هنا — الدالة على الإمكان ، وقرب المنال إلى
دلالة " ليت " الدالة على المُحال وبُعد المنال حسب اقتضاء المعنى ، فقد قال
" فرعون " لوزيرهِ " هامان " ابنِ لِي قَصْرًا عَالِيًا وَبِنَاءً شَامَخًا ، قَالَ هَذَا
عَلَى سَبِيلِ الْمَرَاوِغَةِ (٣) ، وإيهام العامة أنه يمتحن ما جاء به موسى من
التوحيد قال أبو حيان (يا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا) حيدة عن محاجة
موسى ورجوع إلى أشياء لا تصح ، وذلك كله لما خامره من الجزع ،
والخوف ، وعدم المقاومة ، التعرف أن هلاكه وهلاك قومه على

(١) غافر / ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) غافر / ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) على الرغم أن فرعون كان يوقن أنه إله ، فقد أوهم الناس أنه قادر على الوصول إلى أي مكان حتى
ولو كان في السماء ليقاسم رب موسى — حاشا لله — الربوبية ، إلا أنه — هنا — كان مكشوفًا مع
وزيرهِ بلا غطاء ، فجاء التمني في سياق حديثهِ كأبي بشر وليس كإله ومن ثم كانت المبالغة !
والله أعلم .

يد موسى وأن قدرته عجزت عن التأثير في موسى . هذا على كثرة سفكه الدماء .. قال السُّدي : " الأسباب : الطرق " وقال قتادة : " الأبواب " . وقيل لعله عني يجد مع قربه من السماء سبباً يتعلّق به .. وأبهم أولاً الأسباب ثم أبدل منها ما أوضحها . والإيضاح بعد الإبهام يفيد تفخيم الشيء ؛ إذ في الإبهام تشوُّق للمراد وتعجب من المقصود ، ثم بالتوضيح يحصل المقصود ويتعين .. وقرأ حفص (فاطلع) بنصب العين . وقال أبو القاسم بن جبارة ، وابن عطية : " على جواب التمني " . وقال الزمخشري : " على جواب الترجي تشبيهاً للترجي بالتمني .. وقد فرّق النحاة بين التمني والترجي فذكروا أن التمني يكون في الممكن والممتنع والترجي يكون في الممكن . وبلوغ أسباب السموات غير ممكن ، لكن فرعون أبرز ما لا يمكن في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه) (١) . فهذا الفرعون طلب أمراً غاية في البُعد ، ونهاية في التصور واستحالة في الحدوث والتوقع ، إذ بالغ مبالغة فاقت قدرته ، بل وقدرة البشر أجمعين ، فمهما بلغ بناؤه من العلو قلن يبلغ أركان السماء ولا قريباً من ذلك ، الأمر الذي من أجله تم العدول عن " لعل " إلى " ليت " (٢) .

ومنه قوله تعالى : " يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ " (٣) .

لما رأي ضعاف الإيمان خروج قارون في زينة عظيمة بأتباعه الكثيرين رُكباً متحليين بملابس الذهب والحريير ، على خيول موشحة بالذهب انبهروا بالزينة والزخرف وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون قال الزمخشري : (كان المتمنون قوماً مسلمين ، وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر

(١) البحر المحيط ٧ / ٤٤٦ .

(٢) ومنه ما يكون على عكس هذا أن تستخدم " ليت " في الأمور الممكنة وليست المستحيلة مثل قول أبي فراس يخاطب سيف الدولة :

فليتك تحلو والحياة مريرة " وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني والعالمين حراب

فهذه أمور ممكنة ، وليست مستحيلة ، ولكن الشاعر أبرزها في صورة الشيء المستبعد مبالغة في تملقه للممدوح فعبّر بأداة التمني . انظر فن البلاغة / ١٤٩ .

(٣) تمام الآية : " قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم " القصص / ٧٩

وعن قتادة تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبيل الخير وقيل كانوا قومًا كفارًا (١) .

وأيًا ما كان الأمر ، سواء أكان المتمنون مسلمين أم كفارًا ، فقد أبعدوا في التمني ، وأغربوا ، وبالغوا في طلبهم مبالغة عظيمة ، لأن " قارون " لم يكن غنيًا فحسب ؛ بل هو أثرى الأثرياء ، وأغنى الأغنياء بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنْ مِفَاتِحُهُ لِنُتُوءٍ بِالْعِصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ (٢) . وفي هذا ما فيه من تصوير الغنى الفاحش الذي ليس له مثل في الأولين والآخرين بهذا الثقل ، والعرض ، والكثرة والاتساع .

إنه تطلع واستشرف لغاية لا تُذرك ، ولجاء لا يُنال ، إذ لم يُعْطِ الله هذا العطاء لأحد إلا لقارون ، فكانت هذه الوقفة منهم وقفة المأخوذ المدهوش ، المُعْتَر بالزينة ، المتكالب عليها مهما كلفه من ثمن ، لذا لمَّا خُصِفَ به ، كانت ضربة قاصمة قاضية ، ردتهم إلى صوابهم وكشفت عنهم زيف ما جرَّتهم أمانيم الباطلة ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) .

وَيَوْمَئِذٍ نَسُوا اللَّهَ الَّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ الْبَأْسَ الَّذِي كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

يسأل تاركو أتباع الرسول يوم القيامة : هل يشفع لنا شافع في الخلاص من العذاب أو نرد إلى الدنيا مرة أخرى لنعمل عملاً صالحًا (٥) .

وتمَّ مطلبان لهؤلاء التعساء بلغوا فيهما مبلغًا عظيمًا لا يُتصوَّر ، فالأول تمنى وجود شفعاء ليشفعوا لهم ، وقد كفروا بالله وأمنوا بالطاغوت

(١) اكتشاف ٣ / ١٧٩ .

(٢) القصص / ٧٦ .

(٣) القصص / ٨٢ .

(٤) تمام الآية : " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " الأعراف / ٥٣ .

(٥) انظر الكشاف ٢ / ٦٥ ، والبحر المحيط ٤ / ٣٠٨ .

وظنوا الأصنام آلهةً قادرة شافعة ، فإذا هي هباء منثور ، والآخر العودة مرة أخرى إلى الدنيا لعمل الصالحات وهذه دورها احتوت على أمرين بالغوا فيهما أيضاً ، فمجرد العودة أمر مستحيل فقد حكم الله بين العباد ألا عودة إلى الدنيا بعد الموت حتى الشهيد ذي المنازل يتمنى العودة إلى الدنيا لما رآه من الجزاء الحسن فلا يُجاب لطلبه للعلّة نفسها ، الأمر الثاني : ظنهم أنهم سيعملون أعمالاً صالحةً ، وأنهم بإمكانهم تغيير طبائعهم الفاسدة وأخلاقهم المُعَوَّجَة ، فيعملون أعمالاً صالحةً غير تلك الأعمال الطالحة التي غرقوا فيها وهذا مُحال لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

إنه التمني الكاشف عن خيبة الأمل التي حلت في قلوبهم ، فراحوا يتخيلون أموراً مستحيلة هروباً من الواقع المرير والندامة البادية والخسارة الفادحة .. إنها خفقات نفسية عنيفة تهزهم .. تزلزلهم أين المفر ؟ ! ما المخرج ؟ ! .. شفاعة مستحيلة .. وعودة مرفوضة ، وهنا يأتي ختام الآية ليكشف لنا عما آلوا إليه من الخسران واليوار : ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

ومن بديع تراكيبه التي وُظِّف فيها للمبالغة قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ (٢) .

قال أبو حيان : في قوله تعالى : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ ﴾ (لما رأي فيه قبائح أفعاله وما يصير أمره إليه تمنى أنه لم يعطه وتمنى أنه لم يدر حسابه ، فإنه انجلى عنه حسابه عن ما يسوءه فيه ، إذ كان عليه لا له (ياليتها) أي العيئة التي متها في الدنيا (كانت القاضية) أي القاطعة لأمري فلم أبعث ولم أعذب ، أو يا ليت الحالة التي انتهيت إليها الآن كانت الموتة التي متها في الدنيا ، حيث رأي أن حالته التي هو فيها أمرٌ مما ذاقه من الموتة ، وكيف لا وأمره آل إلي عذاب لا ينقطع) (٣) .

(١) الأنعام / ٢٨ .

(٢) الحاقة / ٢٥ - ٢٧ .

(٣) البحر المحيط / ٨ / ٣١٩ .

إنها وقفة أخرى للكافرين ملؤها الحسرة والأسى واليأس المديد السياق هنا يُلقى بظلاله على المتلقي ليكشف عن الافتضاح والتفجع العميق إنه ليُبدى الإيحاء النفسي لهؤلاء ، ويبدو أنها مواقف متتابعة ومشاهد تترى لأولئك المتحسرين الكسيرين الكئيبين .

يكشف السياق - أيضاً - عن عمق الحسرة في تمثي عدم رؤيتهم للكتاب حيث الفضيحة والخزي من أعمالهم ، وهذا هو التمثي الأول ، وأما التمثي الآخر فهو تمثي الموت على الرغم من فظاعته ، وأهواله ؛ لأنهم رأوا ما هو أهول فيه وأفظع ، ومبعث المبالغة في المشهد الأول في عمق الحسرة " لم أوت كتابية " حيث (الرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة في ياء العلة قبلها بعد المد بالألف ، في تحزن وتحسر .. هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقاً بليغاً) (١) .

في المشهد الآخر في الغاية غير المدركة والنهائية المؤلمة غير المأمولة التي يتمناها إذ هو يتمنى الموت الآن ولم يكن شيء عنده قبلُ أكره له منه .

هـ- توظيف التّرَجِّي للمبالغة :

التّرَجِّي : إنما يكون في القريب والمتوقع في المحبوب ، وكذا الإشفاق من المكروه ، ومن أدواته لعل وعسى .

ومن تراكيبه البليغة قوله تعالى :

﴿ قُلْعَلْكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ (٢) .

(١) الظلال ٦ / ٣٦٨٢ .

(٢) تمام الآية " فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز " أو جاء معه ملك إنما أنت نذير " والله على كل شيء وكيل " هود/ ١٢ .

كان المشركون يقترحون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آياتٍ تعنتًا لا استرشادًا ، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم وهدايتهم ، وكانوا لا يعتدّون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات فكان يضيق صدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يُلقى إليهم ما لا يقبلونه ، ويضحكون منه فحرك الله منه وهيجَه لأداء الرسالة وطرح المبالاة برُدِّهم واستهزائهم واقترحهم بقوله تعالى : ﴿ فلعلك تاركٌ بعض ما يُوحى إليك ﴾ أي لعلك تترك أن تلقى إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به ^(١) وقيل : معنى الكلام النفي مع استبعاد: أي لا يكن منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ^(٢) و (الأحسن أن تكون على بابها بالنسبة إلى المخاطب) ^(٣) .

والظاهر أن تلك الاقتراحات السخيفة أصابت قدرًا من الضيق لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن هل يبلغ هذا الضيق أن يترك من أجله تبليغ بعض ما يوحى إليه مخافة الاستهزاء والتكذيب من قبل المشركين ؟ ! ليس الأمر كذلك وحاشاه أن يفعل ، وإنما المعنى كما أشار القرطبي قائمٌ " على النفي والاستبعاد ، وجاء السياق بهذا النظم تهييجًا للرسول - صلى الله عليه وسلم - لأداء الرسالة ، طرحًا للمبالاة باستهزائهم ، وعدم الالتفات إلى تكذيبهم .

وفي التركيب تصويرٌ " لمدى الكيد الذي كاد أن يبلغه هؤلاء المشركون ، وكشفٌ " للمحاولات المتكررة منهم لإثارة الضيق والكد في صدره - صلى الله عليه وسلم - بيد أن اللافت أنه لم يستجب لتلك الدواعي والمؤثرات والبواعث قال الزمخشري : { " فإن قلت " لِمَ عدل عن ضيق إلى ضائق " قلت " ليدل على أنه ضيقٌ " عارضٌ " غير ثابت ، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أفسح الناس صدرًا } ^(٤) .

ومنه قوله تعالى :

(١) انظر الكشاف ٢ / ٢٠٩ .

(٢) انظر القرطبي ٤ / ٣٣٣٠ .

(٣) دراسات لأسلوب القرآن ٢ / ٦٠٣ .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٠٩ .

﴿ فَلَعلِكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١) .

أي فَلَعلِكَ قَاتِلِ نَفْسِكَ يَا مُحَمَّدُ وَمَهْلِكُهَا غَمًّا وَحَزْنًا عَلَى فِرَاقِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ حَسْرَةً وَأَسَفًا عَلَيْهِمْ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ : { " فَلَعلِكَ بَاخِعٌ " " لَعَلٌ لِلتَّرْجِي فِي الْمَحْبُوبِ وَاللِإِشْفَاقِ فِي الْمَحْذُورِ ، وَقَالَ الْعَسْكَرِيُّ .. هِيَ مَوْضُوعَةٌ مَوْضِعُ النَّهْيِ ، يَعْنِي أَنَّ الْمَعْنَى لَا تَبْخَعِ نَفْسَكَ ، وَقِيلَ : وَوَضَعْتَ مَوْضِعَ الْإِسْتِفْهَامِ تَقْدِيرُهُ : هَلْ أَنْتَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : تَقْرِيرٌ وَتَوْقِيفٌ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ أَي لَا تَكُنْ كَذَلِكَ . وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ شَبَّهَهُ وَإِيَاهُمْ حِينَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، وَمَا تَدَاخَلَهُ مِنَ الْوَجْدِ وَالْأَسْفِ عَلَى تَوَلِّيهِمْ بِرِجْلِ فَارِقَتِهِ أَحْبَبْتَهُ وَاعْزَتَهُ فَهُوَ يَتَسَاقَطُ حَسْرَاتٍ عَلَى آثَارِهِمْ .. وَتَكُونُ لَعَلٌ لِلْإِسْتِفْهَامِ قَوْلُ كُوفِي وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا لِلِإِشْفَاقِ أَشْفَقَ أَنْ يَبْخَعَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَفْسَهُ لِكُونِهِمْ لَمْ يُؤْمِنُوا ، وَقَوْلُهُ (عَلَى آثَارِهِمْ) اسْتِعَارَةٌ فَصِيحَةٌ مِنْ حَيْثُ لَهُمْ إِدْبَارٌ " وَتَبَاعَدٌ " عَنِ الْإِيمَانِ وَإِعْرَاضٌ عَنِ الشَّرْعِ ، فَكَانَتْ مِنْ فِرْطِ إِدْبَارِهِمْ قَدْ بَعَدُوا فَهُوَ فِي إِدْبَارِهِمْ يَحْزَنُ عَلَيْهِمْ .. وَ (أَسَفًا) قَالَ مُجَاهِدٌ : جَزَعًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : غَضِبًا ، وَعَنْهُ أَيْضًا : حَزْنًا ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : نَدْمًا وَتَحَسُّرًا ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْأَسْفُ الْمُبَالَغَةُ فِي الْحُزْنِ وَالْغَضَبِ { (٢) .

وَخِلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ التَّرْكِيبَ حَوَى جُمْلَةً مِنَ الْمُبَالَغَاتِ : الْأُولَى فِي مَدَى إِشْفَاقِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْمَعْرُضِينَ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ يَبْذُلُ جَهْدًا شَاقًّا فِي دَعْوَتِهِمْ لَعَلَّهُ قَاتِلِ نَفْسِهِ مِنْ أَجْلِهِمْ هَمًّا وَغَمًّا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِشَرْفِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَشَفَقَتِهِ الْبَالِغَةَ بِأُمَّتِهِ ، وَلِذَلِكَ جَاءَ السِّيَاقُ تَسْلِيَةً وَتَهْدِئَةً لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءَ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلِذَا جَاءَتْ الْآيَةُ بَعْدُ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٣) .

(١) تمام السياق " فَلَعلِكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * الكهف / ٦ ، ٧ .

(٢) الكهف / ٧

(٣) البحر المحيط ٩٦/٦

أي دعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع امتحاناً واختباراً
للخلق أجمعين فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر فلا يعظمن عليك
كفرهم فإننا سنحاسبهم ونجازيهم بأعمالهم .

والثانية : " على آثارهم " كأنهم من فرط إibarهم والمبالغة في
إعراضهم ليس لهم وجود إذ قد بعدوا بالكلية فلم يبق منهم إلا أثرٌ بعد
عين .

والثالثة : في لفظ " أسفاً " الدال على المبالغة في الحزن والأسف .
ومنه قوله تعالى :

﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم
بعد هلاكهم ، فينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد ،
والغرض تحريضهم على طاعة الله ، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق
فرعون وملأه بني إسرائيل أرض مصر قال في البحر : (هذا رجاء من
نبي الله موسى - عليه السلام - ومثله من الأنبياء يقوي قلوب أتباعهم ،
فيصبرون على وقوع متعلق الرجاء ، ولاتتافي بين هذا الرجاء وبين قوله
(والعاقبة للمتقين) من حيث إن الرجاء غير مقطوع بحصول متعلقه
والإخبار بأن (العاقبة للمتقين) واقعة لا محالة ؛ لأن " العاقبة " إن كانت في
الآخرة فظاهر جداً عدم التتافي ، وإن كانت في الدنيا ، فليس فيها تصريح
بعاقبة هؤلاء القوم المخصوصين ، فسلك موسى طريق الأدب مع الله وساق
الكلام مساق الرجاء ، وقال التبريزي : " يحتمل أن يكون قد أوحى بذلك إلى
موسى فـ (عسى) للتحقيق ، أو لم يوح فيكون على الترجي منه (٢) .

(١) تمام الآية : " قالوا أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم
ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون " الأعراف / ١٢٩ ، والأصل في " عسى " الرجاء : طمعاً
أو إشفاقاً ، و " عسى " من الله واجبة ، لاستحالة الطمع والإشفاق عليه تعالى ، وقالوا : كل " عسى "
في القرآن للتحقيق ، وهم يعنون به الوقوع إلا قوله تعالى : (عسى ربه إن طلقن أن يبدله أزواجاً)
التحریم / ٥ فهي للتحقيق انظر دراسات لأسلوب القرآن ٤١٥ / ٨ .

(٢) البحر المحيط ٤ / ٣٦٨ .

لقد أعلمهم موسى — عليه السلام — أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء وتحيص " لهم ، ليس من أجل أنهم أبناء الله وأحباؤه — كما زعموا — وليس الأمر كذلك جزافاً بلا غاية ولا دواماً بلا توقيت ، إنه استخلاف للامتحان " فينظر كيف تعملون " بيد أن النكته اللطيفة في السياق بلوغ دلالاته هذا المستوى من التمكين لبني إسرائيل عبر هذا الرجاء الشامل ، والأمل العريض ، في العزة بعد الإذلال ، والعلو بعد الانحدار ، والتملك بع الافتقار . فما كان يطمح بنو إسرائيل أكثر من الخروج من قبضة فرعون ، والخلاص من ظلمه ، والنجاة من بطشه وجبروته ويمكنك أن تدرك كنه ذلك الجمال النبوي في الأسلوب ، والغاية الرفيعة في الدلالة من خلال هذا الترتيب المتصور لطموح وآمال بني إسرائيل حيال موقفهم من فرعون :

١- النجاة من بطش فرعون .

٢- زوال فرعون وجنوده والتخلص من شرورهم .

٣- هلاك فرعون وتولي حاكم آخر ليس بظالم .

٤- هلاك فرعون واستخلاف بني إسرائيل أنفسهم . وهنا الغاية التي لم يكونوا ليتصوروها البتة .. أنهم المستضعفون ؟ ! .. المذلون ؟ ! .. المهانون ؟ ! ذكورهم مذبحه .. ونساؤهم مدلة .. أتأتي الساعة التي فيها يملكون .. ويستخلفون ويكون منهم أئمة ، وقادة ، وحكام إنها غاية " بعيدة " ، وحلم لم يتصور .. لكنها سنة الله في خلقه ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ ^(١) . إنه ناموس الله في خلقه ، لا يتخلف ، ولا يتبدل ، إن الظالم منتكس ، والتمكين للمؤمنين ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ ^(٢)

(١) الأعراف / ١٢٨ .

(٢) القصص / ٦٠٥ .

ومن بديع تراكييه كذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (١) .

هذا رجاء الذي اشترى يوسف (٢) - عليه السلام - بعد أن أمر زوجته أن تكرم نزله وتحسن مثواه ، حتى تطيب نفسه بذلك ، فيرعى هذا الحق عندما يكبر وقد رعاها لما هممت به امرأة العزيز قال : ﴿ إنه ربي أحسن مثوأي ﴾ (٣) .

وفي قوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ أي (لعله إذا تدرب وراض الأمور ، وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا فيه بكفايته وأمانته ، ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيماً لا يولد له وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك) (٤) وصدق فراسته ، وهذا الذي رجاه وقع ، وأعظم منه إذ صار نبياً صالحاً نافعاً ليس لهما فقط ، بل للأمة كاملة ، فوقى الله به البلاد شر الفقر والقحط والغلاء ، وقرت به عين الملك وأبيه وأخوته وأصبح مكيناً متيناً أميناً .

والألفت أن " عسى " الرجائية - هنا - كانت للطمع والتوقع وليس ثمة حرج في هذا فأخوج بالإنسان أن يتوسع في رجائه ! ويبالغ في طلبه ما دام المعطي جواداً ، لا تنفذ خزائنه ، ملأى لا تغيض أبداً وفي الحديث " نسألك الفردوس الأعلى " .

وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ عَيْنُ لِيِ وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥) .

(١) يوسف / ٢١

(٢) قيل هو قطفير أو إطفير وقيل هو الملك : الريان بن الوليد بن بروان وقال الأول ابن عباس وهو الراجح انظر البحر المحيط ٢٩٢ / ٥ ، والتسهيل ١١٦ / ٢ والكشاف ٢٤٧ / ٢ .

(٣) يوسف / ٢٣

(٤) الكشاف ٣٤٨ / ٢ ، وقيل أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا ، والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما وروي أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه فعرقه . انظر الكشاف ٢٤٨ / ٢ .

(٥) القصص / ٩

إنه الرجاء والطمع في فضله ، وكان رائد موسى — عليه السلام — في ذلك ، الحب الذي ألقاه عليه ربه منذ صغره ﴿ وألقيتُ عليك محبةً مني ولتصنع علي عيني ﴾ (١) .

فقد تعلقت به أسية بنت مزاحم زوج فرعون ورجت فيه الخير ، أما فرعون فقد كان مختلفاً عنها تماماً ، إذ لما قالت : ﴿ قربتُ عين لي ولك ﴾ قال فرعون : (لك لا لي وروي في حديث لو قال هو قرّة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو كان غير مطبوع على قلبه كأسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت) (٢) رجت فيه بذكائها مخايل اليمن ، ودلائل النفع لأهله ، وذلك لما عاينت من النور ، وارتضاع الإبهام ، وبرء البرصاء ، ولعلها توسّمت في سماء النجابة المؤذنة بكونه نفاعاً (٣) .

وفي الموازنة بين الموقفين السابقين في الرجاء نكتة " لطيفة " : الأول في " يوسف " ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ (٤) والسياق على لسان من اشتراه " قطفير " والآخر في " موسى " ﴿ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ (٥) . والسياق على لسان أسية امرأة فرعون ، فكلما الطفلين صار نبياً ، الأول نبيّ أوتي نصف الجمال ، وأكرم بما لم يُكرم به نبي قبله ؛ إذ هو الكريم بن الكريم بن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم والآخر : عبده ومصطفاه وكليمه ومُجتباهه ، فهما من جلة الأنبياء ، بيد أننا نرصد — هنا — التأثير في وقوع قوة الرجاء ، وبلوغه منتهاه للراغبين الطامعين المؤمنّين ؛ أما " قطفير " فقد كان يوسف عليه السلام — خيراً عليه وبركةً ويُمناً في الدنيا وفي بعض الروايات أنه أسلم ، ليشمل الرجاء سعادته في الدنيا والآخرة (٦) .

(١) طه / ٣٩

(٢) الكشاف / ٣ / ١٥٨ .

(٣) انظر الكشاف / ٣ / ١٥٨ .

(٤) يوسف / ٢١ .

(٥) القصص / ٩ .

(٦) انظر في قصة إسلامه وكفره البحر المحيط / ٥ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

وأما " أسية " فقد كانت سعادتها به أكمل وأشد ، إذ إضافة إلى كون موسى - عليه السلام - مباركًا صالحًا نفاعًا لأُمَّته بأسرها ، اختُصت هي بنفع عالٍ ، ومنزلة سامية وهي التي كانت في الحضيض بكفرها ، فلما أمنت ارتقت بإيمانها لأعلى عليين وأضاعت بصيرتها ورزقها الله الحكمة والرشد ، فاخترت الجار قبل الدار ، كما قال الله تعالى على لسانها :

﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

فأي رجاء بعد هذا ، وأي مبالغة في المنن والعطايا أعظم من هذا ؟ ! فسبحان مَنْ بيده المقادير ومن يعطي العطاء بلا حساب ، فقد أعطى " أسية " بـ " عسى " وحرّم " فرعون " بـ " لك لا لي " (٢) .

ملاحظات على دراسة أسلوبَي التمني والرجاء (٣) .

- ١- تناولت الدراسة أربعة نماذج من نماذج القرآن الكريم في التمني وخمسة نماذج في الرجاء .
- ٢- سياقات التمني صدرت من " فرعون " ، وضعاف الإيمان في تمني مثل حظ قارون ، ومن الكافرين . وسياقات الرجاء في " لعل " خطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وفي " عسى " رجاء من الأخ المؤمن ورجاء من " قطفير " ليوسف ، ومن " أسية " لموسى .
- ٣- ألفاظ التمني أربعة واحدة أصلية هي " ليت " ، وثلاثة نائبة هي : هل ، ولو ، ولعل ، وهناك أدوات إضافية هي : هلا ، وإلا ، ولولا ، ولوما . وأدوات الترجي : " لعل " ، و " عسى " .
- ٤- وخالصة الفروق بين التمني والترجي : أن التمني يكون فيما لا يتوقع حصوله ، وأما الترجي فيكون في القريب والمتوقع طمعًا أو إشفاقًا .

(١) التحريم / ١١ .

(٢) عند قوله تعالى على لسانها - كما مر آنفًا - : " قربت عين لي ولك " فكان لها كما قالت وقال هو : " لك لا لي " فكان له ما قال وحرّم الهداية والرشد فكان من الغاوين .

(٣) مزجت بين هذين الأسلوبين لقلة نماجهما وتشابههما .

٥- حظي الرجاء بنصيبٍ نادر في الدراسة البلاغية ؛ إذ لم يحتفِ به البلاغيون احتفاؤهم بما مضى من أساليب (١) ومع ذلك فقد حوى هذا الأسلوب كثيراً من اللفظات الجمالية البديعة .

٦- من التراكيب البديعة في الرجاء : الموازنة اللطيفة بين قوله تعالى : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتَّخذه وليداً ﴾ في " يوسف " و " القصص " (٢) .

و- توظيف العرض والتحضيض للمبالغة :

لهذا الأسلوب أداة " واحدة " أصلية وردت في القرآن الكريم هي : " ألا " (٣) ، وتكون أداةً للعرض إذا كان الطلب برفق ، وهي مختصة بالمضارع كقوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٤)

وتكون أداةً للتحضيض إذا كان الطلب بشدة ، وهي مختصة - أيضاً - بالمضارع كقوله تعالى : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ (٥)

(١) الم اعظ في دراسته إلا على دراستين : الأولى قديمة بسطها السيوطي في الإتيان وبسط لها شاهداً واحداً هو قوله تعالى : " لعل الساعة قريب " الشورى ١٧ وأخرى حديثة للدكتور عبد القادر حسين في كتابه " فن البلاغة " وقد بسط فيها القول ونوع لها الأمثلة . انظر " فن البلاغة " / ١٤٦ - ١٥١ .

(٢) انظر التعليق على الآيتين في أسلوب الرجاء .

(٣) ثمة أداتان أصليتان للعرض والتحضيض هما : (" ألا " المُشَدَّدة) ، و " هَلْ " ، يَبْدُ أنهما لم يردا في القرآن الكريم سوى قراءة شاذة للأخيرة قرأ بها 'أبي وعبد الله في قوله تعالى : " فلو لا كانت قرية " أمّنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس " يونس ٩٨ قرأ : " فهلا كانت قرية " انظر البحر المحيط / ١٩٢ .

(٤) النور / ٢٢ .

(٥) التوبة / ١٣ .

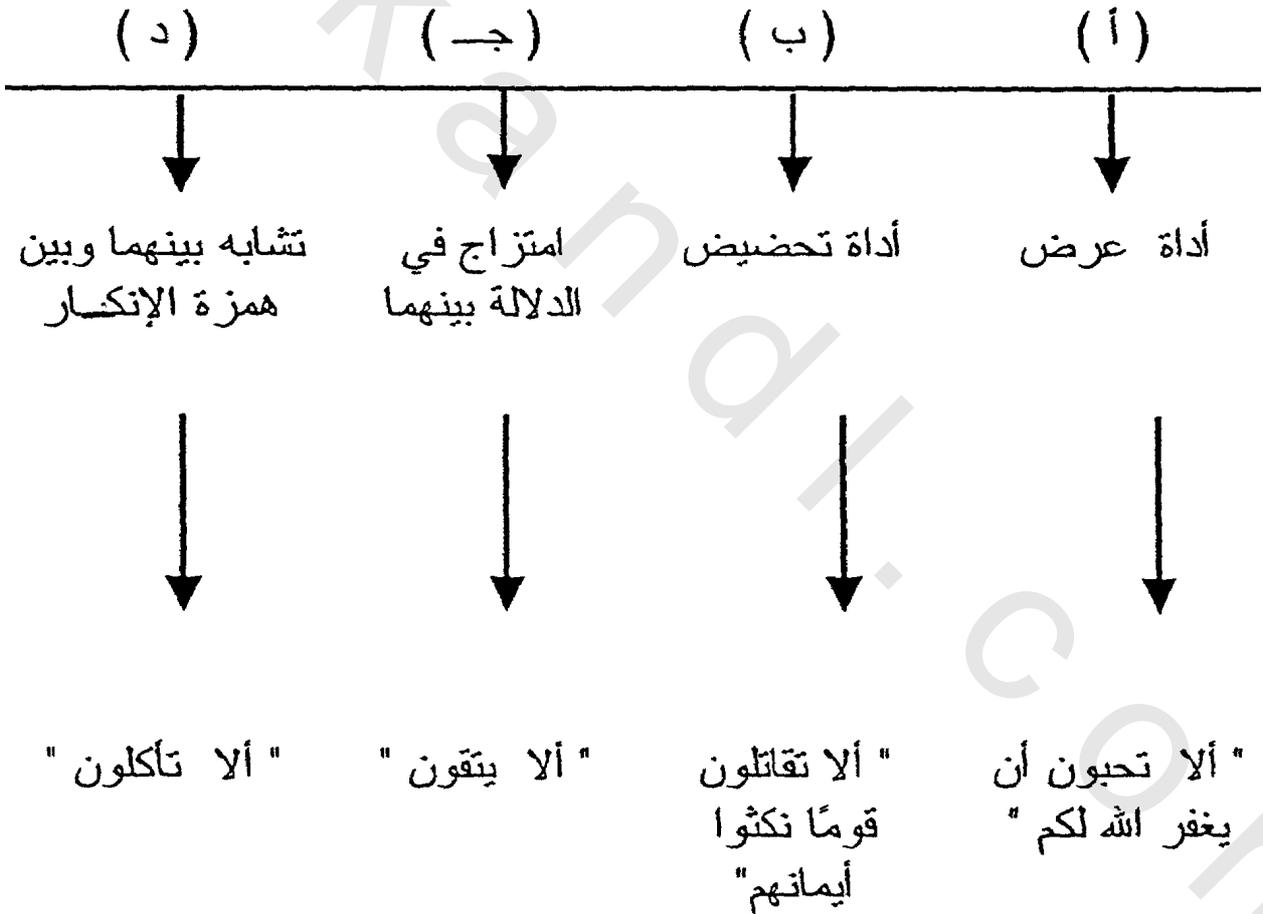
وأحياناً يحدث بينهما امتزاج^٢ في الدلالة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمِ فرعون ألا يتقون ﴾ (١)

ويحدث أحياناً تشابه بينهما وبين همزة الإنكار المقترنة بـ " لا " النافية كما في قوله تعالى :

﴿ فَارْأِغْ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢) وتمت دراسة هذا النموذج في (أسلوب الاستفهام) وتلك الأقسام الأربعة المندرجة تحت المبحث (٣) وهي مبينة في الشكل الآتي :

أداة العرض والتحضيض

(أ)



(١) الشعراء / ١٠ ، ١١ .

(٢) الصافات / ٩١

(٣) انظر دراسات لأسلوب القرآن / ١ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

وثمة أدوات أخرى ملحقة ترد - أحياناً - بمعنى التحضيض ، وليست له نصاً هي " لولا " (١) ، و " لوما " (٢) ، و " أفلا " (٣) .

أولاً : من تراكيب العرض قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (٤)

أَجْمِلْ بِهِ مِنْ عَرَضٍ ! وَأَرْوِغْ بِهِ مِنْ أَسْلُوبٍ ! .. إنه خطابُ العليِّ العظيم لعبيده ومولاه أبي بكر الصديق .. عَرَضٌ "لطيفٌ" من رَبِّ غفور ، ودعوة كريمة من رَبِّ كريم للعفو والغفران لمن أساء إليه ، ومسءه السوء ، ورَمَى ابنته الصديقة عائشة بالإفك وسنرى كيف طرح أبو بكر هذه الإساءة ومرارة الاتهام والطعن في الشرف لما مسَّ وجدانه وقَع هذا العرض البليغ ودَوَّق هذا الحثَّ الرقيق ، فإذا بنفسه الشقافة الشفيقة وروحه العلية الأبية ومشاعره الفيضة الزكية تسارع لتلبية النداء وامتثال عَرَضِ الحثِّانِ المثنان ؛ فقد روى أن أبا بكر لما سمع الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي ، وأعاد النفقة إلى مسطح وكثر عن يمينه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

وفي السياق لفات جمالية بديعة منها : وصف أبي بكر بـ " أولي الفضل والسعة " وفيه دليل على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

(١) إذا وقع بعد " لولا " الماضي كان معناها التوبيخ واللوم على ترك الفعل وإذا وقع بعدها المضارع فمعناها الحض على الفعل والطلب له فهي بمعنى الأمر إلا أنها تستعمل كثيراً في لوم المخاطب على أنه ترك في الماضي شيئاً يمكن تداركه في المستقبل ، ولما تستعمل إلا في موضع التوبيخ واللوم على ما كان يجب أن يفعله المخاطب ، فإذا خلا الكلام من التوبيخ كانت " لولا " للعرض انظر دراسات لأسلوب القرآن ٢ / ٦٩٤ .

(٢) جاءت (لوما) التحضيضية في آية واحدة : " وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين " الحجر / ٦ ، ٧ .

قال الزمخشري : لو رُكِبَتْ مع لا ، وما أي لولا ، ولوما فهي لمعنيين معنى امتناع الشيء لوجود غيره ومعنى التحضيض ، وأما هل فلم تتركب إلا مع لا وحدها للتحضيض والمعنى - هنا - هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك . انظر الكشاف ٢ / ٣١٠ .

(٣) ذكر أبو حيان أن (أفلا) مركبة من همزة الاستفهام التي للإنكار ، وفاء العطف ، و " لا " النافية . وتعطي من دلالاتها - أحياناً - معنى التحضيض ، فقال في تفسير قوله تعالى : " أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه " المائدة / ٧٤ وقال ابن عطية : رفق جل وعلا بهم بتحضيضه إياهم على التوبة وطلب المغفرة " فرد هذا القول وقال " وما ذكروه من الحث والتحضيض على التوبة من حيث المعنى ، لا من حيث مدلول اللفظ ؛ لأن مدلول " أفلا " غير مدلول " ألا " التي للحض والحث " انظر البحر المحيط ١ / ٢٢٥ .

(٤) تمام الآية : " ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم " " النور / ٢٢ ، ونزلت هذه الآية بسبب أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح لما تكلم في حديث الإفك وكان ينفق عليه لمسكنته ، ولأنه قريبه ، وكان ابن بنت خالته ، فلما نزلت الآية رجع إلى مسطح النفقة والإحسان ، وكثر عن يمينه . انظر التسهيل ٣ / ٦٣ .

وأرضاه ، وخطابه بهذا الخطاب الرقيق " ألا تحبون " فيه من الرفق والقرب والشفقة ما فيه ! ثم خطابه بصيغة الجمع " تحبون " تعظيماً وتكرمةً له ، وأخيراً تلك المبالغة في العفو والصفح عن بالغ في الإساءة إليه ، إذ على الرغم من كونه مسيئاً فهو قريب ، وهو في الوقت ذاته مقترف " لإثم القذف ومع ذلك جاء الحثُّ على العفو والصفح ومن هنا قال صاحب التسهيل : (قال بعضهم هذه أرجى آية في القرآن ؛ لأن الله أوصى بالإحسان إلى القاذف) (١) . ومن هنا فالمبالغة في هذا الاستعلاء الإيماني وبلوغ الأسلوب القرآني بالناس إلى أقصى درجات العفو والصفح رجاء العفو من الله العلي القدير .

ومن سياقات الحض قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَعُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرِيمًا ﴾ (٢) .

قال الزمخشري : (دخلت الهمزة على " لا تقاتلون " تقريراً بانتفاء المقاتلة ومعناه الحض عليها على سبيل المبالغة (نكثوا أيمانهم) التي حلفوها في المعاهدة (وهموا بإخراج الرسول) من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة حتى أذن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه (وهم بدعوكم أول مرة) أي وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - جاءهم أولاً بالكتاب المنير ، وتحذأهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادئون بالقتال ، والبادئ أظلم (٣) فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ، وبخهم بترك مقاتلتهم ، وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها) (٤) .

(١) التسهيل ٣ / ٦٣ .

(٢) تمام الآية : " ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدعوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين " التوبة / ١٣ .

(٣) هذه العبارة ليست صحيحة ؛ لأن البادئ ليس بأظلم ، بل ظالم كل الظلم ، والذي يرد الظلم عن نفسه لا يلتبس به أي ظلم بدليل قوله تعالى : " وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به " النحل / ١٢٦ ، وقوله تعالى : " ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " الشورى / ٤١ ، ٤٢ .

(٤) الكشف ٢ / ١٤٢ ، وانظر البحر المحيط ٥ / ١٨ .

وجملة القول : إن هذا السياق حوى عناصر لغوية متعددة تحضُّ على القتال هي :

١- ألا : حرف عَرَض ، ومعناه الحَضُّ على القتال على سبيل

المبالغة كما أشار الزمخشري **أَنْفِيًّا** .
٢- نقض العهد في قوله : ﴿ نَكثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ .

٣- عزموا على تهجير الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مكة في قوله : ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ .

٤- هم البادئون بالقتال والاعتداء حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة في قوله : ﴿ وَهُمْ بِدَعْوِكُمْ أُولَ الْأَمْرِ ﴾ .

٥- في قوله ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ تقرير للخشية وتوبيخ عليها كما لفت إلى ذلك الزمخشري ^(١) .

٦- ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ تهيج للمؤمنين للتبرؤ من خوف البشر وخلص الخوف منه سبحانه .

٧- ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فيه إشارة إلى أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يُبالي بمن سواه كقوله تعالى " ولا يخشون أحدًا إلا الله " ^(٢) .

وكلها - كما ترى - عوامل ساعدت على تكثيف الدلالة حول حتمية الحَضُّ الشديد على القتال ، وقَدَّمَ السياق كافة المبررات الداعية للقتال مع تنويع السياقات الداخلية بين خبر وإنشاء ، ومخاطبة للعقل والوجدان . لا سيما بعد ما بدا من الكافرين كل ما يدعو إلى قتالهم ، وتبلورت المبالغة في الوصول إلى أقصى درجات التهيج والحض على القتال عبر هذه الوسائل كلها مجتمعة ، حتى أن الأسلوب القرآني لم يدع بابًا للتصل من قتال المشركين . من أجل ذلك جاء الأمر الصريح بالقتال عقب هذا السياق ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(٣) .

(١) انظر الكشاف ٢ / ١٤٢ .

(٢) الأحزاب / ٣٩ .

(٣) التوبة / ١٤ ، ١٥ .

ومن التراكيب الفنية لـ (لولا) التحضيضية التي وظفت للمبالغة قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفاك ﴾ مبين (١) .

هذا تأديب " من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في قالة السوء عليها ، ولولا - هنا - للتحريض على ظن الخير ، والإرباء بالنفس عن الارتكاس في حماة الفاحشة وإفشاء قالة السوء ، والمعنى أنه كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على أنفسهم فإن كان ذلك يبعد في حقهم فهو في حق عائشة أبعد لفضلها (٢) ، فإن قيل : لم قال سمعتموه بلفظ الخطاب ، ثم عدل إلى لفظ الغيبة في قوله : ﴿ ظن المؤمنون ﴾ ، ولم يقل ظننتم ؟ فالجواب أن ذلك التفات قصد به المبالغة والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شراً (٣) .

والملاحظ في السياق ذاك الأدب الرفيع بتلك الحماية الواقية للمجتمع من الانحلال والانحراف وراء التوازن والأهواء والترديد لقرارات المغرضين وكان منتظراً في مجتمع تربى على الإيمان أن يستجيب لنداءين خطرين :

الأول : نداء الوجدان ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ وذلك بعرض الأمر على القلب ، واستفتاء الضمير ، والركون إلى الشعور الإيماني بسبق الخير إلى النفس ، والإعراض عن خواطر السوء عند سماع ما يسوء ويشين أي مؤمن بله الرسول - صلى الله عليه وسلم .

النداء الثاني : مطالبة ناقل السوء بتقديم الدليل على صحة القول.

(١) تمام السياق : " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفاك " مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " النور / ١٢ ، ١٣ .

(٢) روي أن هذا النظر وقع لأبي أيوب الأنصاري ، فقال لزوجته : أكننت أنت تغلين ذلك ؟ قالت : لا والله ، قال فعائشة أفضل منك ، قالت : نعم . انظر التسهيل / ٣ / ٦١ .

(٣) انظر الكشاف / ٣ / ٦٥ ، والتسهيل / ٣ / ٦ ، والبحر المحيط / ٦ / ٤٠٢ .

من أجل ذلك جاءت الآية الثانية من هذا السياق تؤكد هذا المبدأ ﴿ ولولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ (١). لكن - للأسف - غفل المؤمنون عن هذين النداءين ، فحاضوا مع الخائضين فجاء العتاب ، واللوم ، بل التحذير في قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ (٢)

ويتكثف دور المبالغة في قوله : ﴿ بأنفسهم ﴾ أي كان من المفروض أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم ، فإذا كان ذلك يبعد عليهم ، قضوا بأنه في حق من هو خير ” منهم أبعد ” (٣).

أو هو من قبيل ما يقع على المؤمنين يقع على كل مؤمن ، فما يشين المسلمين يشين كل مسلم على سبيل المشاركة ، والمؤازرة ، والتواد ، والتعاطف ، وكان المسلم الذي يصدر منه عيب ” لمسلم إنما يعيب نفسه هو ، وهذا الأدب شائع في القرآن نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ (٥) ، وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ (٦) فسمى العيب للغير عيباً للنفس ، وسمى السلام على الغير سلاماً على النفس وسمى قتل الغير قتلاً لنفسه هو . كذلك الالتفات في ﴿ ظن المؤمنون ﴾ ليبالغ في التوبيخ كما أشار الزمخشري (٧) ، كذلك يبرز دور المبالغة في تلك الثقة الشديدة بالمؤمنين وبراءة ساحتهم في قوله تعالى : ﴿ قالوا هذا إفك مبين ﴾ وهو لم ير بعد إن كان هذا إفكاً أم صدقاً ، لكنه الرد السريع لكل من سؤلت له نفسه أن يرمي مؤمناً صادقاً بسوء فيدفع عنه - أولاً - بكل قوة .. في لحظتها ثم يتبين بعد ذلك أين هي الحقيقة ؟ ! . وفي هذا الأسلوب القرآني البديع وصول ” بالمؤمن إلى أقصى درجات التبرئة ، والذود عن أخيه المسلم ، والدفاع عنه كما يدافع عن نفسه .

(١) النور / ١٣ .

(٢) النور / ١٤ .

(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٤٠٢ .

(٤) الحجرات / ١١ .

(٥) النور / ٦١ .

(٦) النساء / ٢٩ .

(٧) انظر الكشاف ٣ / ٦٥ .

ومن سياقات " لولا " كذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١)

إنه الغلو في الاستكبار والعتو في طلبهم : أن يكلمهم الله — عز وجل — كما يكلم الملائكة وكما كلم موسى — عليه السلام — فقالوا : هَلَّا يكون أحد هذين : إما التكلم ، وإما إتيان آية ، قالوا : ذلك جحودًا ، والعجيب أنه لم يكن هذا طلب المشركين في زمن النبي — صلى الله عليه وسلم — وحسب ، بل كان كذلك طلب اليهود وغيرهم من قبلهم فلقد طلب قوم موسى أن يروا الله جهرًا ، وغالى المشركون في طلب الخوارق المعجزة أيما غلو ، وتعنتوا في ذلك أقصى تعنت ، فطلبوا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يفجر لهم الأرض ينبوعًا ، وأن تكون له جنة من نخيل وعنب وأن يتملك بيتًا من زخرف وأن يأتي بالله والملائكة قبيلاً وأن يرقى في السماء وينزل عليهم هم كتابًا مقدسًا ! فكان بين المشركين ومن قبلهم من اليهود شبه " في التصور وشبهه " في الضلال ، وشبهه " في الغلو والإفراط وتجاوز الحد ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ فبئس ما تشابهت فيه من العمى والعناد والتكذيب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٢)

لولا للتحضيض والإنكار ، إذ يستحيل وقوع سلطان بين على ذلك ، فلا يمكن فيه التحضيض الصرف ، فحضورهم على ذلك على سبيل المبالغة في التعجيز ، وفيه دليل " على أن الدين لا يؤخذ إلا بالحجة ، والدعوى إذا لم يكن عليها دليل " فاسدة وهي ظلم " وافتراء " على الله (٣) .

(١) البقرة / ١١٨ .

(٢) الكهف / ١٥ .

(٣) انظر البحر المحيط ١٠٣ / ٦ .

ز- توظيف النداء للمبالغة :

النداء : هو طلب المُتَكَلِّم إقبال المخاطب بحرفٍ من أحرف النداء وأداته ثمان : يا والهمزة وأي وأي وأ وأيا وهيا ووا (١) .

منها ما يُستعمل لنداء القريب : الهمزة ، وأي .

ومنها ما يُستعمل لنداء البعيد : باقي الأدوات .

وذكر الخطيب القزويني " النداء " في معرض دراسته لأنواع الإنشاء الطلبي فقال : (ومنها النداء ، وقد تستعمل صيغته في غير معناه ، كالإغراء في قولك لمن أقبل يتظلم : يا مظلوم ، والاختصاص في : أنا أفعل كذا أيها الرجل ، ونحن نفعل كذا أيها القوم ، واغفر اللهم لنا أيتها العصابة . أي : متخصصًا من بين الرجال ، ومتخصصين من بين الأقسام والعصابات) (٢) .

ولا غرو أن في حديث الخطيب عن " النداء " إيجازًا شديدًا ، إذ حصر الدلالات المجازية للنداء في نطاق ضيق ، في حين أن أسلوب النداء ثريٌ بدلالاته الفنية المتعددة ، ومن خلال أداته يمكن التعبير عن شتى ألوان المشاعر والأحاسيس ، ومن دلالاته الفنية في اللُّغَة : التعظيم ، والتعجب ، والهجاء ، والتحسرُّ والتوجُّع ، والاختصاص ، والنُدْبَة ، والإغراء ، والزجر والملامة ، والاستغاثة ... الخ .

والقرآن المجيد مع كثرة النداء فيه لم يأت فيه نداءٌ " بغير " يا " ، وهي أكثر حروف النداء استعمالاً ، ولهذا لا يُقدَّر عند الحذف سواها ، ولا يُنادى اسم الله تعالى إلا بها (٣) .

(١) انظر المُعْني / ١٨ ، وشرح جمل الزجاجي (الشرح الكبير) لابن عصفور ٢ / ٨٠ .

(٢) الإيضاح / ١٧٩ .

(٣) انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٦١٢ ، وفق البلاغة / ١٥١ .

وأصل النداء بـ " يا " أن تكون للبعيد حقيقة أو حكماً ، وقد ينادى بها القريب لنكت : منها إظهار الحرص في وقوعه على إقبال المدعو نحو :

﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ ﴾ (١)

ومنها كون الخطاب المتلو معتى به ، نحو :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (٢)

ومنها قصد تعظيم شأن المدعو ، نحو : ﴿ يَا رَبِّ ﴾ ، وقد قال تعالى :
﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ (٣)

ومنها قصد انحطاطه ، كقول موسى :

﴿ وَإِنِّي لِأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مُثَبَّرًا ﴾ (٤)

وكثير في القرآن النداء بـ ﴿ يَا أَيُّهَا ﴾ دون غيره ؛ لأن فيه أوجهاً من التأكيد ، وأسباباً من المبالغة (٥) .

(١) القصص / ٣١ .

(٢) البقرة / ٢١ .

(٣) البقرة / ١٨٦ .

(٤) الإسراء / ١٠٢ .

(٥) الاتقان ٣ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، واللائق أن الله تعالى نادى جميع أنبيائه ورسله بأسمائهم ، ونادى نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم بوصفه الشريف : " يا أيها النبي " الأحزاب / ١ ، " يا أيها الرسول " المائدة / ٦٧ ، " يا أيها المزمل " المزمل / ١ ، " يا أيها المدثر " المدثر / ١ .

ومن بديع تراكييه قوله تعالى :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ " يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخَّرِينَ ﴾ (١) .

هذا قول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان تقول يا حسرتي وندامتني على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه ، ثم تأتي المبالغة في المعصية بأن سخروا من أهل الطاعة ، واستهزؤا من أهل الاستقامة (قال قتادة : " لم يكفه أن ضيَّع طاعة الله حتى سخر من أهلها ") (٢) .

إن ذلك السياق التَّحْسُرِي جاء بعد سياق الرجاء ، أرجى آية في كتاب الله ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) . إنها الرحمة الواسعة التي وسعت كل العاصين " إن الله يغفر الذنوب جميعًا " .

تهييج لطيف " ، وحثُّ رقيق على التوبة والأوبة والإنابة لرب الأرض والسماء ، ومكمن المبالغة هنا يتأتى من حسرتهم المفرطة بسبب عصيانهم المركب للأمور الآتية :

١- عدم استجابتهم لنداء الحق بفتح باب التوبة (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) .

٢- استمرارهم في المعصية وإصرارهم عليها .

٣- ثم زادوا على ذلك بسخريتهم من أهل الحق .

(١) الزمر / ٥٦ .

(٢) الكشاف ٣ / ٣٥٢ ، والبحر المحيط ٧ / ٤١٨ ، روي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وقسق وأتاه إبليس ، وقال له تمتع من الدنيا ثم ثب فاطاعه ، وكان له مال " فأنفق في الفجور فاتاه ملك الموت في الدُّ ما كان فقال يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم فأنزل الله خبره في القرآن . انظر الكشاف ٣ / ٣٥٢ .

(٣) الزمر / ٥٣ .

(٢) الأساليب الإنشائية " غير الطلبية "

أ- توظيف القسم للمبالغة :

القسم : هو استعانة الحالف بقوة أعظم من قوته ، تدفع بالمخاطب إلى تصديق ما يقوله الحالف ، قبل القسم: كان أمر الحالف إلى نفسه ، إن صدق ، وإن كذب ، وبعد القسم: صار أمره إلى الحق سبحانه إن صدق غم ، وإن كذب غرم (١) .

وللقسم أدوات منها : الباء والواو والتاء واللام ، وما يجري من الأفعال مجرى القسم مثل : حلف وتآذن وعاهد ، وتمت ، وقضينا ، و وعد ، وكتب ، ويعلم ، ويشهد ، وأخذ الميثاق ، وبعض العبارات مثل : " أم لكم إيمان " (٢) .

ومن سياقاته البديعة قوله تعالى : ﴿لَأَحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣)

أقسم عدو الله فقال لربه : لئن أخرجت إهلاكي إلى يوم القيامة لأقودنهم إلى المعاصي والإفساد كما تفاد الدابة بحنكها غير ممتعة على قائدها ، وهو عبارة عن الاستيلاء عليهم ، وتملك تصريحهم كما يريد ، ومبعث المبالغة كائن " في توظيف القسم لإيراد هذا المعنى البليغ من حيث قدرته على الإغواء ، والتأثير الفعال والمباشر في التملك ، والاستيلاء على الغالبية العظمى من البشر حيث يسوقهم كما يشاء ، وسرُّ التعبير في لفظ " لأحتكنن " بما حوته من قسم ، وما تعلق به من تصوير ، تصوير السيطرة بالجام في حنك الفرس ، إذ لا أحكم منه للفرس ، ولا أملك منه لانقياده وتسويره (٤) ، وقال " الشريف الرضي " { وقال بعضهم معنى لأحتكنن ذريته أي لألقين في أحناكهم حلاوة المعاصي حتى يستلذوها ، ويرغبوا فيها ويطلبوها والقول الأول (أي الاحتناك بمعنى الاستيلاء وتصريف الشأن) أحبُّ إليَّ } (٥) ولعل القول الثاني هذا الذي انماز به " الشريف الرضي " عن سائر المفسرين يُعدُّ بمثابة التمهيد للقول الأول ، فهو يمثل

(١) انظر بديع التراكيب / ١٩٤ .

(٢) انظر دراسات لأسلوب القرآن ١٠ / ٢٤٨ - ٢٥٢ .

(٣) تمام الآية : " قال لأرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرجتني إلى يوم القيامة لأحتكنن ذريته إلا قليلاً " الإسراء / ٦٢ .

(٤) انظر القرطبي ٥ / ٤٠١٥ ، والبحر المحيط ٦ / ٥٥ ، والتحرير والتنوير مجلد ٧ - ١٥١ / ١٥١ .

(٥) تلخيص البيان / ١٥٢ .

إلقاء " الأُطعم " لاصطياد الفريسة والتنوع الحثيث في إغواء بني آدم كما قال تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمُنَاقَبِ ﴾ (١) تلك هي الطُعم التي يستخدمها الشيطان في الاصطياد والحبائل التي يستعملها في الاستيلاء والتمكين من الإنسان (٢) فلا تعارض بين القولين ، بل هما متكاملان يبدأ " بالطعم " وينتهي بالاستحواذ .

وبعد هذا التزيين وإثبات القدرة على السيطرة يُقرُّ أن ثلثة من الناس لا يستطيع إغواءهم " إلا قليلاً " وهم المُخلصون الذين اعتصموا بحبل الله فَنَجَوْا .

ومنه المبالغة في التسامح وترك الدفع ورد العدوان كما في قوله تعالى : ﴿ لئن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لَنَقْتَنِيَ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣)

إنه " هابيل " يُذكَر أخاه لئن مددت إليَّ يدك ظلماً لأجل قتلي ما كنت لأقابلك بالمثل قال ابن عباس : ما أنا بمنتصرٍ لنفسي (٤) هذا على الرغم من أن " هابيل " كان أشدَّ قوةً من قابيل ، ولكنه تخرَّج من القتل خوفاً من الله عز وجل ، والشيء نفسه حدث لعثمان بن عفان - رضي الله عنه ؛ إذ بشره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجنة على بلوى تصيبه ، ورآه في اليوم الذي قتل فيه في النوم ، وهو يقول : إنك تفطر الليلة عندنا ، فترك الدفع عن نفسه حتى قتل ، وقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " الق - على وجهك وكن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل " (٥) ولا يخفى أن هذا كله في وقت الفتنة ، أما في أصل

(١) آل عمران / ١٤ .

(٢) بدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد وفي صحيح البخاري : " ما تركت بعدي فتنة أضرت على الرجال من النساء " ثم ذكر ما يتولد منهن فقال " والبين " وإنما تئى بالبينين لأنهم ثمرات القلوب ، وقدموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ثم ذكر " الخيل المسومة " والأنعام والحرب " وتلك هي وسائله المتدرجة في الإغواء .

(٣) المائدة / ٢٨ .

(٤) انظر البحر المحيط ٣ / ٤٧٧ .

(٥) نفسه ٣ / ٤٧٧ .

الشرع فيجوز الدفاع عن النفس بل يجب (١) واستمراراً لهذه الشفافية والمبالغة في صرف الشر ودوافعه ، ومحاولة استجماع الخير في نفس أخيه قال : ﴿ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

هذه المساحة الكبيرة من المسامحة ، والتنازل البين في المغالبة ما كان ليثني الأخ القاتل عما تراوده نفسه من القتل ، هذا النموذج المتسامح في شخص " هابيل " ربما كان يتصور من أخيه أن يقابل تسامحه بتسامح ورأفته برأفة ولينه بلين ، بيد أن دوافع الشر كانت غالبية ﴿ فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ (٣) .

وقد وُظِّفَ القسم المنوط باللام المؤذنة بالقسم في " لئن " (٤) ليؤكد قوة عزم الأخ المتسامح في النفور من القتل وبذله أقصى ما في طاقته لصرف أخيه عن الاعتداء والسفك .

ومنه المبالغة في نفي الاهتداء كما في قوله تعالى :

﴿ وَلِئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ (٥) .

أي و الله لئن جئت يا محمد - صلى الله عليه وسلم - اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ، ولو سلكت بهم شتى الطرق ، واتبعت شتى الوسائل ما تبعوا قبلك ، مبالغة في نفي الاتباع والاهتداء ، لأن المانع لهم من الاهتداء ليس هو فقدان الدليل ، فهم يعرفون صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم يفتقدون الإخلاص والتجرد من الهوى ، والقسم مُساق لتوكيد هذه الحقيقة وبيان عدم نفع أي أسلوب معهم ، وعدم جدوى أي محاولة لاهتدائهم إلى قبلة الإسلام ونهجه ، فسبحان الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم ! وما أشدَّ

(١) انظر التسهيل ١ / ١٧٤ .

(٢) المائدة / ٢٩ .

(٣) المائدة / ٣٠ .

(٤) البقرة / ١٤٥ .

(٥) مذهب البصريين إذا اجتمع قسم وشرط حذف جواب المتأخر لدلالة جواب الأول عليه كما في الآية انظر البحر المحيط ١ / ٦٠٤ .

غرور من ظنَّ بهم الخير وزعم أنهم دُعاة إلفٍ وسلامٍ .

ومنه المبالغة في التأسف في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (١) . قال الأخوة لأبيهم : والله لا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه حتى تمرض مرضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك أسيء وحسرة .

ودليل المبالغة — أيضاً — الآية السابقة على هذه الآية وهي قوله عز من قائل : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٢) قال الزمخشري : { " يا اسفَى " أضاف الأسف ، وهو أشد الحُزن والحسرة إلى نفسه والألف بدل من ياء الإضافة والتجانس بين لفظتى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيمـلح ويبدع ... (فإن قلت) كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث ، والرُّزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً (قلت) : هو دليل على تمادي أسفه على " يوسف " وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ... (وابتيضت عيناه) إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين ، وقلبتَه إلى بياض كدر ، قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك إدراكاً ضعيفاً ... وعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه سأل جبريل — عليه السلام — ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف قال : وَجْدٌ سَبْعِينَ ثَكْلِي ، قال : فما كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط ... " فهو كظيم " فهو مملوء من الغيظ على أولاده ... من كظم السقاء إذا شده على ملئه { (٣) .

(١) تمام السياق : " وتولى عنهم وقال ياأسفَى على يوسف وابتيضت عيناه من الحُزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرَضاً أو تكون من الهالكين " يوسف/٨٤ ، ٨٥ .

(٢) يوسف/ ٨٤ .

(٣) الكشاف ٢ / ٢٧١ ، ثم أضاف مبيناً شرعية الأسف والمحمود منه والمذموم " فإن قلت " كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ (قلت) الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ولقد بكى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على ولده " إبراهيم " وقال : القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يُسخط الرب وإنما عليك يا إبراهيم لمحزونون ، وإنما الجذع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح ، والنياحة ولطم الصدور ، والوجوه ، وتمزيق الثياب . انظر الكشاف ٢ / ٢٧١ .

ومن هنا أسهمت هذه الألفاظ " يا أسفى - ابيضت عيناه - كظيم -
تالله - تقناً - حرَضاً - من الهالكين " في رسم صورة المبالغة الدالة على
شدة التفجع ، وغاية التأسف التي بلغها نبي الله يعقوب - عليه السلام .

أما عن جمال السياق من زاوية أخرى فقد قال السيوطي : { أتى
بأغرب ألفاظ القسم وهي : التاء ، فإنها أقل استعمالاً ، وأبعد من أفهام
العامة بالنسبة إلى الباء والواو ، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع
الأسماء ، وتتصب الأخبار ؛ فإن " تزال " أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً
منها ، وبأغرب ألفاظ الهلاك ، وهو الحرَض ، فاقترضى حسن الوضع في
النظم أن تُجاوَرَ كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة ، توخيًا لحسن
الجوار ورغبةً في انتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع
وتتناسب في النظم } (١) .

ومنه المبالغة في تقليل الزمن كما في قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٢)

إذ هم يقسمون " ما لبثوا غير ساعة " في الدنيا (٣) نظرًا لاستقصار
تلك المدة ، وتضاؤلها في حسهم ، وهم مخطئون في هذا التصور المبني
على المغالطة ، أو النسيان أو التخمين (٤) ، بيد أن هذه طبيعتهم في قلب
الحقائق ، وطمس البراهين من أجل ذلك قال عز من قائل في تنمة
السياق : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ أي يصرفون عن الحق والصدق والتقدير
الصحيح للأمور ، ويبنون تصورهم على خلاف الحق حتى يردهم أولو العلم
إلى التقدير القويم مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان
لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم
لا تعلمون ﴾ (٥)

(١) الإتيان في علوم القرآن ٣ / ٢٦٢ ، وانظر البرهان ٣ / ٣٧٨ ، وقد نقلت النص من " الإتيان " وإن
كان مسبوقةً لأنه أوفى .

(٢) الروم / ٥٥ .

(٣) أرادوا لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيهما معًا انظر الكشاف ٣ / ٢٠٨ .

(٤) انظر الكشاف ٣ / ٢٠٨ .

(٥) الروم / ٥٦ .

ومن المبالغة في العزم على الفعل كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ
* وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴾ (١)

أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم كما اختبرنا أصحاب البستان (٢) حين حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح قبل أن يخرج إليهم المساكين ﴿ ولا يستنتون ﴾ (٣) وكانت هذه الجملة الأخيرة المنفية الغاية في الوصول أبعد المرامي للتخلص من الفقراء والمساكين جملة واحدة ، وحرمانهم من أي ثمرة دقعة واحدة ، فكان الجزاء من جنس العمل ؛ إذ حرّمهم الله فلم يُبق لهم ثمرة واحدة .

ومنه المبالغة في إهانة اليهود وهوانهم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤)

(١) القلم / ١٧ ، ١٨ .

(٢) روي أن إخوة من بني إسرائيل كانت لهم جنة بمقربة من " صنعاء " فحلفوا أن لا يعطوا مسكيناً منها شيئاً وباتوا عازمين على ذلك ، فأرسل الله على جنتهم طائفاً من نار فأحرقتها فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها فحسبوا أنهم ضلوا الطريق ثم تبينوا فعرفوها وعلموا أن الله عاقبهم فيها بما قالوا فندموا وتابوا إلى الله . انظر التسهيل ٤ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣) (في معناه ثلاثة أقوال أحدها لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليعصرمنها والآخر لا يستنتون شيئاً من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم والثالث لا يتوقعون في رأيهم ولا ينتهوا عنه أي لا يرجعون عنه) التسهيل ٤ / ١٣٩ والأقوال الثلاثة تعني شدة العزم والحزم في إمضاء الحرد .

(٤) الأعراف / ١٦٧ .

قال الزمخشري : { تَأْتِنُ رَبِّكَ } عزم ربك وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به ، ويؤذنها بفعله ، وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله " لبيعثن " والمعنى وإذ حتم ربك وكتب على نفسه لبيعثن على اليهود " إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب " فكانوا يؤدون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر ومعنى لبيعثن عليهم : ليسلطن عليهم كقوله " بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأسٍ شديد " الإسراء ٥ { (١) .

إنه قسم " من رب البرية باستمرار هوان اليهود ، وديمومة إهانتهم وإذاقتهم ألوان العذاب إلى أقصى ما تعيشه البشرية ، ومكمن المبالغة في قسم الله أن يبعث عليهم أبد الدهر إلى " يوم القيامة " من يردهم إلى الذل ويعيدهم إلى المسكنة (٢) .

(١) الكشاف ٢ / ١٠١ .

(٢) فقد أهانهم الفرعون حتى أذلهم وسلط الله عليهم يُخْتَنَصِرُ فقتلهم وسيأهم ، وسلط عليهم " الرومان " فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية وسلط عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فطهر الأرض من رجسهم ، وأجلاهم عن الجزيرة العربية ، وسلط عليهم - أخيراً - هتلر - فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ، ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض ، ولا يزال وعيد الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة - إن شاء الله - ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ولقد يبدو - أحياناً - أن اللعنة قد توقفت ، وأن يهود قد عزت واستطالت ! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ .. ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة القادمة ، وما بعدها إلى يوم القيامة . سيد قطب في ظلال القرآن ٣ / ١٣٦٤ - ١٣٨٦ . بيد أن الأمل معقود أن يبيت الله الروح في هذه الأمة الإسلامية ، وأن يخرجها من سباتها وأن يفيقها من غيبوبتها لتحقق وعيد الله لهم ، وتردهم إلى الذل الذي كتبه الله عليهم .

ومنه المبالغة في نفي البعث في قوله تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

حلف المشركون جاہدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت ولعل التعبير بـ " جهد أيمانهم " إضافة إلى القسم أضفى هذا البعد المتناهي في نفي البعث في تصورهم ، ورأوه أمراً عسيراً إن لم يكن مستحيلاً بعد البلى وتفرق الأشلاء والذرات .

(١) النحل / ٣٨ ، قال ابن منظور : { هو " الجهد " بالفتح : المشقة وقيل : المبالغة والغاية وبالضم الوُسع والطاقة ، وقيل : هما لغتان في الوسع والطاقة ، فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير } لسان العرب مادة (ج ، هـ ، د) .

ب- توظيف التعجب للمبالغة :

التعجب : معنى يحصل عند مشاهدة ما يُجهل سببه ويقل في العادة وجود مثله وذلك المعنى كالدّهش والحيرة ^(١) ولا يوصف الله - تعالى - بالتعجب (لأنه استعظام يصحبه الجهل ، وهو تعالى مُنزهٌ ” عن ذلك) ^(٢) .

قال ابن منظور : " العُجْبُ والعَجَبُ : إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده " ^(٣) وقال الراغب الأصفهاني : { العَجَبُ والتعجُّبُ : حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء ، ولهذا قال بعض الحكماء العجبُ ما لا يُعرف سببه ، ولهذا قيل : لا يصح على الله التعجب ؛ إذ هو عالم الغيوب لا تخفى عليه خافية .. ويُستعار مرةً للمؤنق فيقال : أعجبني كذا أي : راقني . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله ﴾ البقرة ٢٠٤ ^(٤) وقد تُعبّر الكلمة عن الشعور الخاص حيال الفائت في الحسن أو الفائت في القبح ، وقد يحمل هذا الشعور في طياته دهشةً أو سخريةً أو نفورًا أو ألمًا ، بدرجة تفوق الشعور بها أمام العادي من الأمور مما يوضحه السياق ^(٥) .

وللتعجب صيغتان قياسيَّتان هما : ما أفعله ! وأفعلن به ! ، وصيغ سماعية نحو : لله درّه ، وصيغ من غير لفظه نحو " كبر " كقوله تعالى :

(١) انظر شرح المُفصّل لابن يعيش ٧ / ١٤٢ ، والظاهر أن التعجب وإن بدا قريبًا من " المبالغة " كما في قولك : ما أكرم زيدًا !

و زيدٌ " مكرام . إلا أن ثمة فروقًا واضحة بينهما ، فالتعجب قائم على الجهالة وانخراق العادة ، الأمر الذي يحصل منه الاندهاش ، وكان " زيدًا " في المثال الأول ما كان ينبغي أن يكون كريمًا ، إذ يقل في العادة أن يكون مثله كريمًا ، وكان استعظام أمر الكرم أدّى إلى الحيرة كيف وصل زيد إلى هذا الحد ؟ ! وهو ربما ليس له بأهل ، بينما أمر المبالغة قائم على إثبات الزيادة والكثرة على جهة التحقق والتثبت ومن هنا جاز في أسمائه - سبحانه - إثبات صيغة المبالغة وانتفى التعجب في حق الله تعالى . والخلاصة أن المبالغة درجة يحققها المضمون ليصل إلى مستوى الإحاطة الشاملة ملتصقًا أقصى غايات المعنى ، بينما التعجب أسلوبٌ " - غالبًا - ما يجنح إلى صيغتيه القياسيَّتين ، وصيغته السماعية المحددة .

(٢) الإثقان ٣ / ٢٢٨ .

(٣) لسان العرب مادة (ع ، ج ، ب) .

(٤) المفردات / ٥٤٧ .

(٥) انظر بديع التراكيب / ٢٢١ .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ (١) وكذلك بعض السياقات
كسياق الاستفهام نحو قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢)

ومن بديع سياقات التعجب المبالغة في كفر الإنسان نحو قوله تعالى :

﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ (٣)

قال الزمخشري : { " ما أكفره " تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا خشن " مساً ، ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذممة مع تقارب طرفيه ولا أجمع للأئمة على قصر متنه } (٤) فما راعى مقتضيات نشأته وخلقه ولو رعاها لكان أكثر شكراً وقرباً وتواضعاً من أجل ذلك قال عز من قائل بعدها : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ (٥) وهو لفت " لأصله الضعيف المهين . ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ (٦) فالشق الأول " من نطفة خلقه " مصدر العوز والفقر والاحتياج والشق الثاني " فقدره " : منشأ الرحمة والفضل والمنة ؛ إذ جعله شيئاً من لا شيء ، وأضحى كائناً سويّاً ذا قيمة ، يفضل كثيراً من خلق الله بعد أن كان شيئاً غير مذكور . فما سبب هذا الجحود والعناد والإعراض ، فجاء السياق القرآني كاشفاً هذا الوجه عن طريق أسلوب التعجب في أروع بيان . ولذا يلخص " ابن جزي " هذا في تفسيره لأسلوب التعجب قائلاً : { " ما أكفره " : تعجب من شدة كفره مع أنه كان يجب عليه خلاف ذلك } (٧) ، ومعلوم " أن التعجب لا يُنسب إلى الله - تعالى - وإنما يُنسب إلى المخلوقين كما قال " أبو حيان " { إذ هو مستحيل " في حق الله أي هو ممن يُقال فيه ما أكفره } (٨) . وتكمن المبالغة في بيان مدى ما وصل إليه الإنسان من الكفر والعصيان ، وأنه قد تجاوز الحد وانفرط عن سواء السبيل ، وانفلت من دائرة الشكر والعرفان .

(١) الكهف / ٥ .

(٢) البقرة / ٢٨ .

(٣) عبس / ١٧ .

(٤) الكشاف ٤ / ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٥) عبس / ١٨ .

(٦) عبس / ١٩ .

(٧) التسهيل ٤ / ١٧٩ .

(٨) البحر المحيط ٨ / ٤٢٠ .

ومنه المبالغة في صبر الكافرين على نار جهنم على سبيل التوبيخ
والتهكم كما في قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب
بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ (١)

أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم { تعجب من حالهم في التباسهم
بموجبات النار من غير مبالاة منهم كما نقول لمن يتعرض لما يوجب غضب
السلطان ما أصبرك على القيد والسجن تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو
شديد الصبر على العذاب " (٢) وذلك من جرّاء جرّاءتهم على اقتراف أنواع
المعاصي دون النظر إلى العواقب الوخيمة فما أشدَّ إيلاهم وأسوأ
عاقبتهم ! . ومنه قوله تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ
مَالَهُمْ مِنْ كُونِهِ مَنْ وَلِيٌّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (٣)

جاء التعجب هنا على صيغة " أفعل به " في قوله عز من قائل :

﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ (٤) أي ما أبصره بكل موجود ، وما أسمع له لكل
مسموع ؛ لأن الله يدرك الخفيات كما يدرك الجليات (٥) وقال الزمخشري :
{ جاء بما دلَّ على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات للدلالة على
أن أمره في الإدراك خارج " عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ،
لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجمًا وأكثفها جرْمًا
ويُدرك البواطن كما يدرك الظواهر } (٦) . وبعد .. فقد بات واضحًا
مدى الترابط الوثيق بين التعجب والمبالغة إذ تولى أسلوب التعجب التفاعل
والتأثير في درجة المبالغة إلى غايتها المرجوة ، واكتسبت المبالغة - من
جهة أخرى - فضاءً عريضاً بكونها في رحم التعجب .

(١) البقرة / ١٧٥ ، هذا الموضع والذي قبله على صيغة ، " ما أفعله " ولم يرد في القرآن غيرهما سوى
قوله تعالى : " يا أيها الإنسان ما أغرك بريك الكريم " الانفطار / ٦ وذلك في قراءة سعيد بن جبير
والأعمش " ما أغرك " انظر دراسات لأسلوب القرآن ٣ / ١٠٩ ، ١١٠ والبحر المحيط
٤٢٧ / ٨ .

(٢) الكشاف / ١ / ١٠٨ .

(٣) الكهف / ٢٦ .

(٤) جاءت هذه الصيغة في آية أخرى في القرآن هي قوله تعالى " أسمع بهم وأبصر " مريم / ٣٨ .

(٥) انظر التسهيل / ٢ / ١٨٦ .

(٦) الكشاف / ٢ / ٣٨٧ .

الحذف لغة : هو الإسقاط والطرح والقطع ^(١) وفي اصطلاح البلاغيين : " إسقاط جزء من الكلام أو كله بدليل " ^(٢)

وافُتتَن البلاغيون بهذا النمط من التعبير ، حتى قال عنه ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) مُرَدِّدًا ما قاله " عبد القاهر " (ت ٤٧١ هـ) من قبل { أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر ، شبيهه " بالسحر وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجذب أنطق ما تكون إذا لم تتطوَّق وأتمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبين . } ^(٣)

ومن سياقات الحذف التي وُظفت للمبالغة قوله تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ^(٤)

اسأل القرية ... والعير هو من باب حذف المضاف ، وهو باب " واسع " في إيراد جماليات الحذف ، وأداء المبالغة ^(٥) والتقدير : اسأل أهل القرية وأصحاب العير ^(٦) بيِّد أن النظم القرآني " وأسأل القرية .. والعير " بهذا النسق - بطي المضاف - أحدث في التركيب علاقات جديدة لم تكن من قبل ، وازداد التعبير بهذا العدول عن النمط المألوف جِدَّةً وطرافةً ، تتواءم مع طموح المُتلقي في البحث عن أنماط جديدة تكون دومًا عامل حفز له على إثارة وجدانه وإثراء فكره ، وإشباع حاجة النفس في تمثّل المعنى عبر التخيل والتصوير لينسجم مع الإعجاز البياني للقرآن الذي يحمل أبدًا عوامل التجدد والتحوُّل في البناء اللغوي .

(١) انظر اللسان مادة (ح ، ذ ، ف) .

(٢) البراهان في علوم القرآن ٣ / ١٠٢ ، انظر رسالتي للماجستير " حذف الكلمة في القرآن الكريم دراسة بلاغية إشراف د . منير سلطان مكتبة قسم اللغة العربية بكلية البنات جامعة عين شمس . مبحث الحذف عند البلاغيين ٤٣ / .

(٣) المتل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير قدّمه وعلّق عليه د . أحمد الحوفي ، ود . بدوي طبانة - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - لا طبعة - لا تاريخ ٢ / ٢١٩ .

(٤) يوسف / ٨٢ .

(٥) انظر " حذف الكلمة في القرآن الكريم " مباحث : حذف المضاف وحذف المضافين وحذف ثلاثة مضافات / ١١٠ - ١١٥ .

(٦) انظر التسهيل ٢ / ١٢٦ والكشاف ٢ / ٢٧٠ والبحر المحيط ٥ / ٣٣٢ .

وسياق الآية حديث أخوة يوسف لأبيهم عندما أرادوا أن ينبئوه نبأ سرقة " بنيامين " - أخيهم - صواع الملك . وقد سبق لهم أن نبأوه نبأ " يوسف " شقيق بنيامين بأن الذئب أكله فحصل عند أبيهم نوع " من الشك فيما قالوا . لكنهم في هذه الحالة الأخيرة صادقون . وهم يعلمون أن هذا الخبر سيفجر في نفس أبيهم كثيراً من هواجس الريب والظن . فالمقام مقام اتهام لهم وإنكار لما يقولون . فأرادوا أن يُعَبِّروا عن صدقهم وأنهم في هذا الخبر صادقون . فبالغوا في تصوير صدقهم وادَّعوا أن أمر السرقة شاع حتى إن القرية كادت تعلم به ولو سألتها لأجابت فما بالك بأهلها ، وحتى إن العير - التي هي حيوانات " - عجم كادت تفقه أمر هذه السرقة لكثرة ما ترددت على الألسنة فلو سألتها لأجابت بما نقول ، فما بالك براكبيها ! فالسر إذن وراء هذا الحذف هو قصد المبالغة واشتہار أمر السرقة بدرجة لم يستقم معها شك أو تكذيب (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ (٢)

"أشربوا" عبارة عن تمكّن حب العجل من قلوبهم ، فهو مجاز تشبيهاً بشرب الماء أو بشرب الصبغ في الثوب وفي الكلام محذوف أي "أشربوا حبّ العجل" (٣) قال ابن منظور {أشرب فلان} "حب فلانة أي خالط قلبه وأشرب قلبه محبة هذا ، أي حلّ محلّ الشراب وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ أي حب العجل ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، ولا يجوز أن يكون العجل هو المشرب ، لأن العجل لا يشربه القلب ، وقد أشرب في قلبه حبّه أي خالطه . وقال الزجاج : "وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ، قال : معناه سُقُوا حَبَّ الْعِجْلِ ، فحذف حبّ ، وأقيم العجل مقامه" (٤) .

ومنشأ المبالغة من كون الشرب أسند إلى العجل لا إلى حبه قال أبو حيّان : { وأسند الإشراب إلى ذات العجل مبالغة كأنه بصورته أشربوه ،

(١) انظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - د . عبد العظيم المطعني - مكتبة وهبة - ط الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ٤٦ ، ٤٥ / ٢ .

(٢) تمام الآية " وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل ينسأ بامرکم به ایمانکم ان کنتم صادقین " البقرة / ٩٣

(٣) انظر التسهيل ٥٤ / ١ .

(٤) اللسان مادة (ش ، ر ، ب) .

وإن كان المعنى على ما ذكرناه من الحذف ، وقيل : معنى أشربوا ، أي : شد في قلوبهم حب العجل لشغفهم به ، من أشربت البعير إذا شددت حبلاً في عنقه { (١) .

إنها صورة حسية لو تصورها المرء ... كيف يُشربُ العجلُ في القلب ؟ ! وما هي إلا دلالة على عمق المأساة في هذا الانحراف العقدي المشين في عبادة العجل ، وتغلغل حبه في قلوبهم وإن هذه الصورة لتعكس — أيضاً — حجم الأكذوبة المُفتراه " شعب الله المختار " وأن الهدى مقصورٌ عليهم وأنهم الذين اختصوا بالآخرة دون سائر الخلق !. فأني لهم وهذا حالهم ؟ ! .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ (٢)

قال صاحب التسهيل : { فإن قيل : كيف قال : تبوءوا الدار والإيمان وإنما تتبؤا الدار أي تسكن ، ولا يتبؤا الإيمان ؟ فالجواب من وجهين : الأول أن معناه تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان فهو كقولك : علفتها تبنًا وماءً باردًا . تقديره : علفتها تبنًا وسقيتها ماءً باردًا . والثاني : أن المعنى أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطن " لهم لتمكنهم فيه كما جعلوا المدينة كذلك { (٣) وقال الصاوي على الجلالين : { والمعنى : لزموا الدار والإيمان أو شبه تمكنهم في الإيمان باتخاذهم منزلاً ففيه جمع " بين الحقيقة والمجاز { (٤) .

وروعة التركيب — هنا — في تصوير الإيمان بالمنزل الذي سكنه الأنصار وهو دلالة على مبالغتهم فيه ، وتمكنهم منه ؛ إذ استقروا في الإيمان كاستقرارهم في الدور والأوطان " وهذا من صميم البلاغة ولباب الفصاحة ، وقد زاد اللفظ المستعار هنا معنى الكلام رونقاً ألا ترى كم

(١) البحر المحيط ١ / ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

(٢) تمام الآية " والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " الحشر / ٩

(٣) التسهيل ٤ / ١٠٩ ، وانظر الكشاف ٤ / ٨٢ ، والبيضاوي ٢ / ٤٨١ وأبا السعود ٨ / ٢٢٩ ، والبحر المحيط ٨ / ٢٤٥ ، والقرطبي ١٠ / ٦٧٤٤ والتحرير والتنوير مجلد ١٣ جزء ٢٨ / ٩٠ .

(٤) الصاوي على الجلالين ٤ / ١٦٠ .

بين قولنا : استقرّوا في الإيمان ، وبين قولنا : تبوءوا الإيمان وأنا أقول أبدًا
أن الألفاظ خدم ” للمعاني لأنها تعمل في تحسين معارضها وتتميق
مطالعها { (١) .

لقد كان الإيمان للصوقهم به دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه
قلوبهم وتسكن إليه أرواحهم ويثوبون إليه ويطمئنون له كما يثوب المرء
ويطمئن إلى الدار . وهنا مكن المبالغة ؛ فليس الإيمان إطارًا هامشيًا ، أو
ظِلًّا منتقلًا ، أو غطاءً زائلًا بل موطنًا ومحلًا ومستقرًا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (٢)

المعنى : أن المستضعفين قالوا للمستكبرين بل مكرّم بنا في الليل
والنهار سبب كفرنا ، وأضاف مكر إلى الليل والنهار على وجه الاتساع
ويحتمل أن يكون إضافة إلى المفعول أو إلى الفاعل على وجه المجاز :
كقولهم نهاره صيام وليله قيام أي يصام فيه ويقام ، ودلّت الإضافة على
كثرة المكر ودوامه بالليل والنهار (٣) ومن ثم جاءت المبالغة دالة على كثرة
المكر وديمومته ليلاً ونهارًا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية * ناصية كاذبة
خاطئة ﴾ (٤)

ليرتدع هذا الفاجر ” أبو جهل ” عن غيّه وضلاله ، فوالله لئن لم ينته
عن أذى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لناخذنه بناصيته ، فلنجرنه
إلى النار بعنف وشدة وقوله تعالى : ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أي صاحب
هذه الناصية كاذب { ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزًا
والكاذب الخاطيء في الحقيقة صاحبها والخاطيء الذي يفعل الذنب

(١) تلخيص البيان / ٣١٢ .

(٢) تمام الآية ” وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله
ونجعل له أندادًا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون
إلا ما كانوا يعملون ” سبأ/ ٣٣ .

(٣) انظر التسهيل / ٣ / ١٥١ .

(٤) العلق/ ١٥ ، ١٦ .

متعمداً والمخطيء الذي يفعله بغير قصد { (١) قال البيضاوي : (ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها على الإسناد المجازي للمبالغة) (٢) تلك التي تدل على قوة الكذب المتمكنة فيه وشدته قال الألوسي : (و وصف الناصية بما ذكر مع أنه صفة صاحبها للمبالغة حيث يدل على وصفه بالكذب والخطأ بطريق الأولى ، ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه كان كل جزء من أجزائه يكذب ويخطأ وهو كقوله تعالى : ﴿ تصف ألسنتهم الكذب ﴾ النحل ٦٢ (٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ (٤)

في الآية حذفان : الأول قول الملائكة : " قالوا سلاماً " والتقدير : سلمنا عليك سلاماً والآخر قول نبي الله إبراهيم عليه السلام " قال سلام " والتقدير : أمري أو أمركم سلام أو عليكم سلام " (٥) .

ومدار المبالغة في رد إبراهيم حيث أجاب سلامهم القائم في نظم الجملة الفعلية الدال على التجدد بسلامه المنتظم في الجملة الإسمية الدال على الثبوت والاستقرار ورده هنا ينسجم مع قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ (٦) . حيث زاد في التحية ، وبالغ في الرد ، فكان رده ممزوجاً بالمبالغة في التحية ، والزيادة في التقدير .

(١) التسهيل ٢٠٩ / ٤ .

(٢) البيضاوي ٦١٠ / ٢ .

(٣) روح المعاني ١٨٧ / ٣ .

(٤) هود / ٦٩ .

(٥) انظر البحر المحيط ٢٤١ / ٥ .

(٦) النساء / ٨٦ .

د - توظيف الالتفات للمبالغة :

الالتفات : هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية ، واستدراجاً للسامع ، وتجديداً لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملل والضجر ، بدوام الأسلوب الواحد على سماعه (١) وفي التراث البلاغي والنقدي طائفة من المصطلحات التي تواردت مع مصطلح الالتفات على ظاهرة " التحول الأسلوبي " مثل " الصرف " و " العدول " و " الانصراف " و " التلون " و " مخالفة مقتضى الظاهر " و " شجاعة العربية " .

وأبرز مجالات الالتفات في القرآن كما يراها د . حسن طبل (٢) هي :

١- الصيغ

٢- العدد

٣- الضمائر

٤- الأدوات

٥- البناء النحوي

٦- المعجم

وقد وُظف الالتفات للمبالغة في نماذج متعددة منها قوله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ (٣)

بدأت الآية الكريمة بمخاطبة المخاطبين { مؤمنين وكافرين } (يسيركم - كنتم) ثم تحول النسق إلى الإخبار عنهم بضمير الغيبة (وجرين بهم) فما فائدة هذا العدول عن " الخطاب إلى الغيبة " قال الزمخشري { " فإن قلت " ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة " قلت " المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتفويض " (٤) .

(١) انظر البرهان ٣ / ٣١٤ .

(٢) انظر أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية - د . حسن طبل - أغسطس ١٩٩٠م / ٦٣ .

(٣) تمام السياق : " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح " عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . لما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون " يونس / ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) الكشاف ٢ / ١٨٦ ، وانظر البرهان ٣ / ٣٢٩ .

وبعد أن نقل " أبو حيان " كلام الزمخشري هذا قال معلقاً : (والذي يظهر والله أعلم : أن حكمة الالتفات هنا هي أن قوله : ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ خطاب فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين والمسирرون في البر والبحر ، مؤمنون وكفّار ، والخطاب شامل ، فحسُن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة ، فيرجع ، فلما ذكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى أن الملتبس بها هو باغٍ في الأرض بغير الحق ، عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي) (١) وهذا الذي ذهب إليه " أبو حيان " أقرب - في رأيي - وألصق بالدلالة ، فصدر الآية فيه إظهار لمنن الله وفضله على الخلق أجمعين ، فلما جاء ختام السياق متلبساً بالحديث عن الشرك والبغي أتى هذا اللفظ الجمالي وانتقل السياق من " الخطاب إلى الغيبة " مبالغة في إكرام المؤمنين حتى لا يندرجوا معهم في البغي وجاء الالتفات في الوقت نفسه توبيخاً وتقييحاً لتلك الفئة الباغية بعد شمول المنن السابقة من الله عليهم .

ومنه الالتفات في الصيغ من صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٢) .

فقد جاء السياق في الموضع الأول بصيغة اسم الفاعل للدلالة على الشكر " شاكراً " ثم التفت عنها إلى صيغة المبالغة عند التعبير عن الكفر " كفوراً " وهو التفت يحقق غايتين في آنٍ واحدٍ :

الأولى : التوازي أو التوازن الإيقاعي بين الفواصل ؛ فقبل هذه الآية وبعدها كانت الفواصل مبنية على روي الرء المتلوة بألف الإطلاق والمردوفة بالمد الواوي أو اليائي (مذكوراً - بصيراً - سعيراً) ، من ثم كان التحول عن (كافراً) إلى (كفوراً) ، إذ إن الأولى تفتقد الرفع الذي تتوازن به فاصلة الآية مع قريناتها في السياق (٣) .

(١) البحر المحيط ٥ / ١٤٢ .

(٢) الإنسان / ٣ .

(٣) انظر أسلوب الالتفات / ٩٠ .

الثانية : المبالغة التي تنفرد بها الصيغة الثانية دون الأولى ، والتي تجسد البون الشاسع بين إقبال الإنسان على الشكر وإقباله على الكفر فهو لا يخطو خطوة في طريق الشكر إلا خطا في طريق الكفران والجحود أضعافها .

قال أبو حيان : (ولما كان الشكر قل من يتصف به قال " شاكراً " ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء " كفوراً " بصيغة المبالغة) ^(١) وهذا يتواءم مع وصف القرآن للإنسان بأنه قليل الشكر كثير النكران نحو قوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ^(٤) .

وقد لمس البيضاوي نكتة دقيقة في هذا التحول عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة في الآية ؛ فهو يرى أن في العدول عن (شاكراً) إلى (كفوراً) إشعاراً بأن الإنسان - غالباً - لا يخلو من كفران ، وأن الله عز وجل رحمته واسعة بعباده لا يؤاخذهم على قليل الكفران والجحود بل على المبالغة والتوغل فيه ^(٥) .

ومن الالتفات في الصيغ أيضاً قوله تعالى :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٦) .

(١) البحر المحيط ٨ / ٣٨٧ .

(٢) سبأ / ١٣ .

(٣) الأعراف / ١٧ .

(٤) إبراهيم / ٢٤ .

(٥) انظر البيضاوي ٢ / ٥٥١ ، وانظر أسلوب الالتفات / ٩٠ .

(٦) العنكبوت / ٦٤ .

الالتفات بين صيغتي { الحياة - الحيوان } وهما بمعنى واحد ،
فمردهما إلى أصل واحد هو " حيي " ^(١) " بيّد أن الصيغة الثانية " الحيوان "
إنمازت في كونها أدل على المبالغة ، لأنها على بناء " فعّالان " المعبر عن
الحركة والقوة ، فهي تدل على الحياة المستمرة أبداً فلا تنقطع وهذا ما لم تفده
الصيغة الأولى " الحياة " قال الزمخشري : (في بناء الحيوان زيادة معنى
ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعّالان من معنى الحركة والاضطراب
كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك ، والحياة حركة كما أن الموت
سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك
اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقضى للمبالغة) ^(٢) .

ويعلق د . حسن طبل على الآية مبرزاً جمال الالتفات ، ومبالغته
فيقول : في التحول إلى صيغة الحيوان مع الدار الآخرة مبالغة في تحقق
معنى الحياة في تلك الدار ، والإشعار بأنها هي الجديرة بأن تُسمّى حياة ،
وقد حفلت الآية الكريمة بما يدعم هذا التحول ، ويُعمّق دلالاته على سموّ
الحياة الآخروية بالقياس إلى الحياة الأولى فلنتأمل :

— بينما بولغ في إثبات معاني اللهو واللعب للحياة الأولى بأسلوب
القصر " ما — إلا " بولغ في المقابل في إثبات معنى الحياة للدار الآخرة —
" إن " و " اللام " وتعريف طرفي جملة الخبر " لهي الحيوان " .

— بينما وردت صيغة الحياة مُقيّدة بالوصف " الدنيا " وردت صيغة
الحيوان مطلقة بلا وصف ، وذلك للإشعار بأن الحياة الآخروية في تساميتها
أبعد من أن يحيط بها وصف .

— بينما وقعت صيغة الحياة مبتدأ أخبر عنه باللهو واللعب ، وقعت
صيغة الحيوان في جملة الإخبار عن الدار الآخرة ، فكان هذه الدار ليست
مجرد وعاءٍ أو مسرح للحياة الآخروية بل إنها ذاتها حياة ^(٣) .

(١) قال الراغب : (" لهي الحيوان " أن الحيوان الحقيقي السرمدي الذي لا يفنى ، لا ما يبقى مدّة ثم يفنى
، وقال بعض أهل اللغة : الحيوان والحياة واحدٌ " وقيل الحيوان : ما فيه الحياة ، والموتان ما ليس فيه
حياة) المفردات / ٢٦٩ .

(٢) الكشاف / ٣ / ١٩٥ .

(٣) انظر أسلوب الالتفات / ٨٨ .

ومنه الالتفات في البناء النحوي كما في قوله تعالى :

﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ خروج عن نسق الآية وهو هنا الرفع وكان من المنتظر طبقاً للسياق أن تأتي " والمقيمون الصلاة " حتى ظن البعض أنه وقع لحنًا في القرآن كما قال " الزمخشري " : { ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنًا في خط المصحف ، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب ، وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتتان } (٢) .

ومن ثم فإن هناك شكًا فيما ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت عن قوله تعالى : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ : (هو من لحن كتاب المصحف) (٣) وقد اختلف المفسرون في تأويل العامل المحذوف (٤)

هذا العدول عن النسق أعطى المتلقي افتتانًا وجمالاً ، " فالاختصاص " أو " المدح " ما كان ليأتيا لولا هذا المساق اللغوي المقصود ، وهذا الطي المتعمد ، فالمخالفة — هنا — هي من قبيل المخالفة الفنية التي تسمح بتوافر هذا السياق الجمالي ثم هي تعطي من جهة أخرى تكثيفًا للمعنى . إن هذا الضرب في الفن البلاغي يُعدُّ نوعًا من التمرُّد على الإلف اللغوي الشائع ، وإيثار لنمطٍ فنيٍّ من شأنه أن يثري دائمًا البحث اللغوي والبلاغي بما يمنحه من دلالات وظواهر لغوية وبلاغية تسهم في بيان نظم القرآن وإعجازه . وهنا تكثفت الدلالة حول إقامة الصلاة لمزيد الاهتمام بشأنها والمبالغة في أدائها على الوجه الأكمل .

(١) النساء/ ١٦٢ .

(٢) الكشاف/ ١ / ٣١٣ .

(٣) التسهيل/ ١ / ١٦٤ .

(٤) ذهب كلُّ من الزمخشري والبيضاوي إلى أن النصب على المدح ، وذهب أبو السعود في تفسيره إلى أن النصب على الاختصاص . انظر الكشاف/ ١ / ٣١٣ والبيضاوي/ ١ / ٢٤٨ وأبا السعود/ ٢ / ٢٥٤ .

ومنه الالتفات في الضمائر { خطاب - غيبة } للمبالغة في التوبيخ

نحو قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

حيث تحوّل السياق من الخطاب والضمير في قوله تعالى : ﴿ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ إلى الغائب والظاهر في قوله عز وجل ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وكان التقدير " لولا إذ سمعتموه ظننتم " فما سرُّ هذا الالتفات ؟ قال أبو حيان { عدل بعد الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر فلم يجيء التركيب ظننتم بأنفسكم خيرًا وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى أن لا يصدق مؤمن " على أخيه قول عائب ولا طاعن ، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيه على ظن الخير ، وأن يقول بناءً على ظنه " هذا إفك مبين " هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه ، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال ، وهذا من الأدب الحسن } (٢) .

هـ - توجيه الخطاب للمبالغة :

أفرد " الزركشي " مبحثاً في سفره القيم " البرهان " أسماء : { في وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن } (٣) أورد فيه بعض المخاطبات التي اتسمت بالمبالغة في صفات معينة مثل التكريم والتحبيب والتفجير والاستهزاء والتعجيز والتحسير ومن نماذج التكريم قوله تعالى :

﴿ قَالِمٌ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

(١) النور / ١٢ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٤٠٢ .

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢١٧ - ٢٥٣ .

(٤) هود / ١٤ .

أورد " الزركشي " الآية تحت عنوان " خطاب " الواحد بلفظ الجمع ^(١) والمُخاطَب - هنا - هو النبي صلى الله عليه وسلم - بخطاب الجمع تعظيماً وتكريماً .

قال الزمخشري : { يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - } ^(٢) .

ومنه تنويع الخطاب تكريماً للنبي الله موسى في قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأْ لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) .

قال الزمخشري : { (فإن قلت) كيف نوع الخطاب فثنى أولاً ثم جمع ثم وحدّ آخرًا (قلت) خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوأ لقومهما بيوتًا ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء ثم سيق الخطاب عامًّا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ؛ لأن ذلك واجبٌ " على الجمهور ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها وللمبشر بها } ^(٤) .

فقد نُوع الخطاب من التثنية في قوله " تبوأ " إلى الجمع في قوله " واجعلوا " ثم إلى الأفراد بالبشارة في قوله " وبشر المؤمنين " مبالغة في تكريم موسى عليه السلام واختصاصاً له بالتعظيم .

ومنه في تكريم أبي بكر الصديق قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٥) .

(١) انظر البرهان ٢ / ٢٣٥ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢١٠ ، وانظر البحر المحيط ٥ / ٢٠٩ ، والتسهيل ٢ / ١٠٢ .

(٣) يونس / ٨٧ .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٠٠ ، وانظر البرهان ٢ / ٢٤١ ، ٢٤٢ ، والبحر المحيط ٥ / ١٨٥ .

(٥) النور / ٢٢ .

هذا من باب خطاب الواحد بلفظ الجمع ، فالمُخاطَبُ — هنا — أبو بكر الصديق لما حرم مسطحاً رفدَه حين تكلم في حديث الإفك ولذا لما نزل قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ قَالَ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي ، ثُمَّ رَدَّ النَّفَقَةَ إِلَى مَسْطُوحٍ (١) .

والآية دالة على فضل أبي بكر الصديق فإن الله تعالى امتدحه بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُو الْفَضْلِ ﴾ من جهتين :

الأولى : نسبتَه إلى الفضل والسعة .

والأخرى : خطابه بـ"أولو" .

وكفى بهما دليلاً على فضل أبي بكر رضى الله عنه وأرضاه .

ومنه خطاب التحييب والمبالغة في التلطف واللين مثل الحوار الرفيق من نبي الله " إبراهيم " عليه السلام لأبيه في قوله تعالى :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (٢) .

قال الزمخشري : { انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء ، وانسلخ عن قضية التمييز " كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللفظ واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصباً في ذلك بنصيحة ربه عزاً وعلا .. وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطئه طلباً منبّه على تماديهِ ، موقظاً لإفراطه وتناهيهِ ... ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً فلم يُسمَّ أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال : إن معي

(١) انظر البرهان ٢ / ٢٣٥ ، والتسهيل ٣ / ٦٣ .

(٢) مريم / ٤١ - ٤٥ .

طائفةٌ من العلم ، وشيئاً منه ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ فلا تستتكف ... ثم ثلثت بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده هو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال ... ثم ربّع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجرّه ما هو فيه من التبعة والوبال ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يُصرّح بأن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصقٌ به ولكنه قال أخاف أن يمسك عذابٌ فذكر الخوف ، والمس ، ونكر العذاب ... وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله يا أبت توسلاً إليه واستعطافاً { (١) .

فأي لطف بليغ اتصف به نبي الله إبراهيم عليه السلام ؟ ! وأي أدب رفيع اتّسم به في هذه الرقعة القرآنية السامقة التي تنطق بأدب الحوار ، وتقديم الحُسن في الخطاب ، ووجوب اتّساح الداعية بالفن العالي في أسلوب تبليغ الدعوة ، ومراعاة حسن التنظير والتنظيم في الحديث حيث ابتدأ الخطاب بقوله " يا أبت " دلالة على شدة الحب و جذب انتباهه واستعطافه للاستماع لحديثه بعد ، وقد رتب كلامه معه ترتيباً منطقيّاً فنبه :

أولاً : إلى بطلان عبادة الأوثان .

ثانياً : أمره برفق باتّباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى .

ثالثاً : ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة وغير مقبولة عقلاً .

رابعاً : ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق .

ومنه استعطاف نبي الله هارون أخاه موسى عليهما السلام مرتين :

الأولى : في الأعراف وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

(١) الكشف ٢ / ٤١٢ .

(٢) الأعراف / ١٥٠ .

والأخرى في طه وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بَنِ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (١) .

قال الزمخشري : { أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد . وذلك أدعى إلى العطف والرقّة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها } (٢) .

فالخطاب فيه مبالغة في التلطف والترفق إذ كان شقيقه ولكنها عادة العرب تتلطف وتتحنن بذكر الأم كما قال :

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شَقِيقَ نَفْسِي (٣)

ومنه خطاب التنفير كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) .

وقد بيّن " أبو السعود " ما في الآية من مبالغة بل مبالغات من فنون شتى فقال : { تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعاً وعقلاً وشرعاً مع مبالغات من فنون شتى : الاستفهام التقريري ، وإسناد الفعل إلى أحد إيذاناً بأن أحداً من الأحدین لا يفعل ذلك ، وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهية ، وتمثيل الاغتيا بأكّل لحم الإنسان ، وجعل المأكول أخصاً للأكل وميتاً } (٥) .

(١) طه / ٩٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٩٥ .

(٣) انظر البحر المحيط ٥ / ٣٩٤ .

(٤) الحجرات / ١٢ .

(٥) أبو السعود ٨ / ١٢٢ ، وانظر الكشاف ٤ / ١٥ ، والتسهيل ٤ / ٦١ ، والبيضاوي ٢ / ٤١٧ ، والبحر المحيط ٨ / ١١٤ ، والقرطبي ٩ / ٣٨٥ ، والتحرير والتنوير مجلد ١٢ ٢٦ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

والألفت أن هذا التركيب حوى تلك المبالغات وهذه اللوحات التفسيرية الملاحقة لتصوير الاغتياب بأقبح صورته ، وأفحشها تخيلاً مما يؤدي إلى تكاثف الدلالة لدى المتلقي ، فيبادر إلى كراهية هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، الداعي لكراهية الاغتياب بشتى صورته وأشكاله .

ومنه خطاب التهكم للمبالغة في الاستهزاء كما في قوله تعالى :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (١) .

بعد قوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ (٢) .

يقال هذا للكافر على سبيل الإهانة والاستهزاء قال عكرمة : التقى النبي صلى الله عليه وسلم - بأبي جهل فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أقول لك ﴿ أولى لك فأولى ﴾ (٣) فقال : بأي شيء تهددني ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية (٤) .

ومنه خطاب التعجيز نحو قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٧) .

(١) الدخان / ٤٩ .

(٢) الدخان / ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) آية في سورة القيامة هي الآية الرابعة والثلاثون ، والمعنى : ويل لك أيها الشقي ثم ويل وقد أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي جهل .

(٤) انظر القرطبي ٩ / ٦٢٠٠ .

(٥) البقرة / ٢٣ .

(٦) هود / ١٣ .

(٧) الطور / ٣٤ .

والمعنى إن كنتم أيها الناس في شكٍ وارتيابٍ من صدق هذا القرآن المعجز في بيانه ، وتشريعه ، ونظمه المُنزَّل على عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - فأتوا بسورة واحدة والسياقات الأخرى بعشر سور أو بحديثٍ مثله إن كنتم صادقين ، بيِّد أن هذه السياقات وردت على سبيل التعجيز قال أبو حيان : { اقتضاء ذلك كونهم عاجزين عن الإتيان سواء اجتمعوا أو انفردوا وسواء كانوا أميين أم كانوا غير أميين } (١) .

ومنشأ المبالغة - هنا - هو الوصول إلى أقصى آيات التحدي " إنها سورة واحدة ... ومع هذا لم يستطع أحدٌ من الأولين ولا من الآخرين أن يأتي بالمطلوب ، والتحدي على الرغم من أنه بليغ عجيب إلا أن الأعجب منه هو الجزم بعدم إمكانه " ولن تفعلوا " ، وكان القرآن بهذا يضيف معجزة إلى سائر معجزاته في كون التحدي باقياً لكل منكر أوتي مجامع الكلم ، ورزق السلاسة في اللغة ، والروعة في البيان ، والدربة في الأداء اللغوي الرفيع ، وهكذا أبد الدهر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ومنه خطاب التحسير والتقريع كما في قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢) .

الأسلوب قائم على التقريع والإغاظاة كما يقول القائل : مت بدائك أي : أبقى الله داءك حتى تموت به ، ويجوز ألا يكون ثمَّ قول ، وأن يكون أمراً يُطيب النفس ويقوي الرجاء والاستبشار بوعد الله ، أن يهلكوا غيظاناً باعزاز الإسلام وإذلالهم به ، كأنه قيل : " حدِّث نفسك بذلك " (إن الله عليمٌ بذات الصدور) (٣) .

وإذا ربطنا هذا الموضوع بالسياق وجدنا الآيات تتحدث عن المنافقين والنهي باتخاذهم بطانة ، لأنهم يتمنون من كل قلوبهم الفساد و المشقة

(١) البحر المحيط ١ / ٢٤٦ .

(٢) تمام السياق " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليمٌ بذات الصدور " آل عمران / ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) انظر الكشاف ٣ / ٤٤ ، ٤٥ .

للمؤمنين " ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر " قال الزمخشري : { العنت شدة الضرر والمشقة وأصله انهياض العظم بعد جبره اي تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه " قد بدت البغضاء من أفواههم " لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من أسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين } ^(١) فمن شدة البغضاء ظهر على أسنتهم ، ومن شدته أخذوا بعضون أناملهم من الغيظ ومن هنا جاء السياق القرآني منتظماً متوازياً مع هذا الحجم الكبير من البغضاء ، وذلك الشحن الشديد من الحقد على الإسلام والمسلمين ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ فليس بوسعكم أن تفعلوا شيئاً ، وليس بمقدوركم أن تتألموا من الإسلام والمسلمين ، كما أنكم لستم بمستطيعين أن تثبوا هذا السمّ المكتم إلا بالقدر الذي حدده الله ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ ^(٢) . أما الكيد والمكر ﴿ فلا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ^(٣)

كذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾ ^(٤)

هذه الصورة جدُّ قريبة من الصورة السابقة في الإغاظه والتهكم ، فالأولى : دعاء على الحاقد بأن يموت بغيظه فما هو بمستطيع أن يفعل بغيظه شيئاً .

وهذه : صورة تُجسِّم الحالة القصوى التي وصل إليها ذاك اليائس

(١) الكشاف / ١ / ٢١٣ .

(٢) آل عمران / ١١١ .

(٣) فاطر / ٣٥ ، قال سيد قطب : (ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرأة ، ولكننا لا نفيق .. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر ، ومرة بعد مرة تنفلت أسنتهم فتتم عن أحقادهم حتى لا يذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين .. ومع ذلك نعود ، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق ! .. وتبلغ بنا المجاملة أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فننحاشي ذكرها .. وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي ننقي فيه نكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين .. ومن هنا نلقي العنت الذي يوده عداؤنا لنا) الظلال / ١ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٤) الحج / ١٥ .

من نصر الله ورجائه بأن يعمد إلى حبلٍ فيتعلق به بعد أن يكون قد ربطه في سقف بيته ، ثم ليقطع ليسقط في النهاية منخنقاً .. ثم لينظر هل ينقذه تدبيره هذا كما يغيظه ، وفي هذا مبالغة في التهكم ، وتقريع شديد لذلك اليأس البائس قال أبو حيان : { إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من حاسديه وأعدائه أن الله يفعل ذلك ويطمع فيه ويغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه ، بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدَّ حبلًا إلى سماء بيته فاختنق فلينظر ، وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه } (١) ويبدو أن الصورتين قد تميزتا بأنهما كانتا ردًا على عنصرَي الشدة والمبالغة في الفعل : ففي الأولى جاء الموت بالغيظ ردًا على المبالغة في إظهار الغيظ حتى طفا على السطح ، فانفلت من الألسنة والأفواه " قد بدت البغضاء من أفواههم " وما ذاك إلا للاكتظاظ وبلوغ الغاية في الحقد والبغضاء ، وجاءت الصورة الأخرى " فليمدد بسبب إلى السماء " ردًا على اليأس المُتَّبق وانقطاع الرجاء المنقطع النظير في نصر الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا والآخرة .

و- توظيف التكرار للمبالغة :

التكرار : ظاهرة أسلوبية عالجهها البلاغيون والنقاد ، ويُقصد به إعادة ذكر أداة أو كلمة أو فاصلة أو قصة في موضع آخر أو مواضع متعددة ، وقال ابن الأثير عن غرضه : " إن التكرير إنما يأتي لما أهم من الأمر ، بصرف العناية إليه ليثبت ويتقرر " (٢) .

ومثال ذلك قولنا " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " لأن قول " لا إله إلا الله " مثل قول " وحده لا شريك له " { وهما في المعنى سواء ، وإنما كررنا القول فيه لتقرير المعنى وإثباته ، وذلك لأن من الناس من يخالف }

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٣٢ .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - لضياء الدين بن الأثير - قدمه وعلق عليه د . أحمد الحوفي ، د . بدوي طيانة - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ٣ / ١١ .

فيه كالنصاري والثنوية والتكرير في مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز ،
وأحسنُ وأشدُّ موقعًا { (١) .

وعلى الرغم أن من أغراض التكرير الأساسية التأكيد إلا أن التكرير
أبلغ منه (لأنه وقع في تكرار التأسيس ؛ وهو أبلغ من التأكيد ، فإن التأكيد
يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز ، فلهذا قال الزمخشري في قوله
تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . إن الثانية تأسيس
لا تأكيد ، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء فقال : وفي " ثم " تنبيه على أن
الإنذار الثاني أبلغ من الأول) (٣) .

ومنه التكرار لتأكيد الذم وبلوغه الغاية في التقييح والتهم كما قال
تعالى : ﴿ فَكُلَّ كَيْفٍ قَدَّرَ * ثُمَّ قُلَّ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (٤)

أي قاتل الله " الوليد بن المغيرة " على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها
في نفسه حيث قال عن القرآن ، إنه سحر وقال عن الرسول - صلى الله
عليه وسلم إنه ساحر وفي الآية استهزاء به وتهكم ، حيث قدر ما لا يصح
تقديره ولا يسوغ أن يقوله عاقل قال في البحر المحيط : (مشهور في كلام
العرب أنه يقال : عند استعظام الأمر والتعجب منه ، ومعناه : إنه قد بلغ
المبلغ الذي يحسد عليه ويدعى عليه من حساده ، والاستفهام في " كيف قدر ")
في معنى : ما أعجب تقديره وما أغربه ، كقولهم : أي رجل زيد ، أي : ما
أعظمه وجاء التكرار بـ " ثم " ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى ،
للتراخي الذي بينهما ، كأنه دعى عليه أولاً ، ورجى أن يقلع عن ما كان
يرومه فلم يفعل فدعى عليه ثانياً (٥) .

(١) نفسه ١٠/٣ ، ١١

(٢) التكاثر / ٣ ، ٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ١١ / ٣ ، وانظر الكشاف ٤ / ٢٣١ .

(٤) المدثر / ١٩ ، ٢٠ .

(٥) البحر المحيط ٨ / ٣٦٦ .

ومن هنا أسهم في جلاء جمال السياق وإبراز جانب المبالغة : صيغة الفعل " قتل " التي للدعاء والذم ، والاستفهام للتعجب كما قال الزمخشري : (معنى قول القائل قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما شعره الأشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك) (١)

و " ثم " للتراخي في منحه الفرصة للتراجع والإقلاع ، والتكرار لتأكيد التهكم .

ومنه تكرار الأداة " بل " للمبالغة في الاضطراب كما في قوله تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴾ (٢)

فقد تكررت " بل " الدالة على الإضراب لبيان فساد أقوالهم جملةً حتى لا تكاد تدري أي هذه الأقوال تقبلها وأيها تُضربُ عنها ؛ فقد ذكروا — قبلُ — أنه سحر في قوله تعالى : ﴿ هل هذا إلا بشرٌ مثلكم أفأتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ (٣) ثم أضربوا عن نسبة السحر إليه ، وذكروا أن ما يأتي به إنما هو أخلاط منامات ثم أضربوا عن هذا أيضاً وقالوا ﴿ بل افتراه ﴾ أي اختلقه وليس من عند الله ، ثم أضربوا عن هذا كذلك وقالوا ﴿ بل هو شاعر ﴾ { وهكذا المبطل لا يثبت على قول بل يبقى متحيراً } (٤) .

ومنه تكرار المثل إذ يبلغ المثل الثاني ما لا يبلغه المثل الأول كما في ضرب المثل للمنافقين في أول سورة البقرة ، إذ ضرب لهم مثالان في كشف طبيعة النفاق وحالهم العجيبة فيه ، الأول : مثل حالهم بحال من أوقد ناراً يستدفىء بها ويستضيء فما لبثت أن أضاعت حتى انطفأت ، وتركته في ظلام دامسٍ وخوف شديد ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاعت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في

(١) الكشاف ٤ / ١٥٨ .

(٢) الأنبياء / ٥ .

(٣) الأنبياء / ٣ .

(٤) البحر المحيط ٦ / ٢٧٦ .

ظلمات لا يُبصرون ﴿ (١) .

ثم ثنّى تعالى بتمثيل آخر لهم مبالغة في كشفهم وإيضاح حالهم وقد مُثِّل حالهم بحال قوم " أصابهم مطر شديد فيه ظلمات " ورعد " وبرق ، فضلوا عن الطريق وخافوا الهلاك على أنفسهم ، حتى جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق خشية الموت وذلك في قوله تعالى : ﴿ أو كصيّب من السماء فيه ظلمات " ورعد " وبرق " يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط " بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴿ (٢)

قال الزمخشري : { " فإن قلت " أي التمثيلين أبلغ " قلت " الثاني لأنه أول على فرط الحيرة وشدة الأمر وفضاعته ولذلك " أحر وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ } (٣) وهذا يتفق مع ما ترمي إليه المبالغة من الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياته .

ومنه تكراره بمرادفه للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ عذاب " من رجز أليم ﴿ (٤) (والقصد المبالغة ، أي عذاب مضاعف (٥) وبالعطف كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴿ (٦) ، وقوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴿ (٧) ﴿ (٨)

(١) البقرة / ١٧ .

(٢) البقرة / ١٩ ، ٢٠ .

(٣) الكشاف / ١ / ٤١ .

(٤) سبا / ٥ .

(٥) في الكشاف : عن قتادة : الرجز : سوء العذاب انظر الكشاف ٢٥١ / ٣ وقال أبو حيان : الرجز : العذاب السيء انظر البحر المحيط ٧ / ٢٤٩ .

(٦) يوسف / ٨٦ .

(٧) البقرة / ١٠٩ .

(٨) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٤ .

ز- توظيف التقديم (١) للمبالغة :

التقديم : أحد أساليب البلاغة وفنون القول التي تناولها البلاغيون قديماً وحديثاً (٢) حيث يكتسب قدرًا من الخصوصية الجمالية في تحوله من مكان إلى مكان ، وللتقديم الفني فائدتان :

الأولى : ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ ، وذلك هو الغاية القصوى ، وإليه المرجع في فنون البلاغة ، والعمدة في هذا هو القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ (٣)

تجد أن تقديم الجار والمجرور في هذا قد أفاد التخصيص ، وأن النظر لا يكون إلا لله ، مع جودة الصياغة وتناسق السجع .

الأخرى : ما يفيد زيادة في المعنى فحسب نحو قوله تعالى : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ (٤) فتقديم المفعول في هذا لتخصيصه بالعبادة دون سواه ، ولو أُخِّر لم يفد الكلام ذلك (٥) .

والنظم القرآني يحمل أسراراً شتى في الدقة المختارة للفظ من حيث تقدمه أو تأخره ، فتشبي العلاقة بين اللفظين ، أو بين الألفاظ بنوع من الدلالات الدقيقة التي تعمل على تحريك الذهن في متابعة أسرار التقدم أو التأخر لتلك المفردات ، ومهما أجاد الأديب في سبك نتاجه الأدبي ، فسترى تفاوتاً واضطراباً - أحياناً - لعدم مراعاة تلك الدقة بين المترادفات فيما حقه التقديم ، وفيما حقه التأخير ، لكن الأمر في التنزيل جدُّ مختلف ، فإنك واجدٌ " نسجاً رصيناً ، لا غموض فيه ولا اضطراب ، ولا تتزاع فيه

(١) اكتفيت بذكر " التقديم " عن " التقديم والتأخير " لأنه إذا قَدِّمَ الخير فهم تأخير المبتدأ ، وإذا قَدِّمَ المفعول فهم ضمناً تأخير الفاعل وهكذا إذا قَدِّمَ لفظ " فهم تبعاً تأخير الآخر .

(٢) انظر مثلاً : البرهان ٣ / ٢٣٣ ، والمثل السائر ٢ / ١٧٢ ، بديع التراكيب / ٤٧١ البلاغة العربية / ٢٣٥ ، البلاغة والأسلوبية / ٣٢٩ ، علوم البلاغة / ١١٩ ، فن البلاغة / ١٠١ ، أثر النحاة في البحث البلاغي / ٨١ ، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث / ١٦٩ .

(٣) القيامة / ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) الزمر / ٦٦ .

(٥) انظر علوم البلاغة / ١١٩ .

ولا اختلاف قال عز من قائل : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
اِخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

وتمَّ خيطٌ " دقيق بين المبالغة بمعنى الزيادة والكثرة وسر التقديم ،
حيث يُقدَّم الأزيد والأكثر في الصفة على غيره ، مثل إبداء الحفاوة والتكريم
أو الحث والتحضيض ، أو التغليب أو التعجيب أو الميل فيُقدَّم الأزيد في هذه
الصفات على غيره تدرُّجًا دقيقًا كما في قوله تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ
حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الْمَآبِ ﴾ (٢) .

بدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، والميل إليهن أكثر وفي الحديث :
" ما تركت بعدي فتنةً أضرت على الرجال من النساء " (٣) ثم تئى بالبنين
لأنهم ثمرات القلوب وقررة الأعين ، قال الزركشي : (وأخر ذكر الذهب
والفضة عن النساء والبنين لأنهما أقوى في الشهوة الجليئية من المال ، فإن
الطبع يحث على بذل المال ، فيحصل النكاح ، والنساء أقعد من الأولاد في
الشهوة الجليئية ، والبنون أقعد من الأموال ، والذهب أقعد من الفضة ،
والفضة أقعد من الأنعام ؛ إذ هي وسيلة إلى تحصيل النعم) (٤) .

وقال أبو حيان : (بدأ في تفضيلها بالأهم فالأهم ، بدأ بالنساء لأنهنَّ
حبائل الشيطان وأقرب وأكثر امتزاجًا ... ويقال : فيهن فتنتان : قطع
الرحم ، وجمع المال من الحلال والحرام وفي البنين فتنة واحدة وهي جمع
المال وتئى بالبنين لأنهم من ثمرات النساء وفروع عنهن وشقائق النساء في
الفتن " الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ " ... (و) ثلث بالأموال لما في المال من الفتنة
ولأنه يحصل به غالب الشهوات ، ولأن المرء يرتكب الأخطار في

(١) النساء / ٨٢ .

(٢) النساء / ١٤ .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) البرهان ٣ / ٢٤٨ .

تحصيله الولد) (١) وفي السياق مبالغات منها : وصف المشتبهات بالشهوات قال في البحر (وعبر عن المشتبهات بالشهوات مبالغة إذ جعلها نفس الأعيان وتبنيها على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند العقلاء ، يُذم متبعتها .. وناهيك لها ذمًا قوله - صلى الله عليه وسلم : " حُقَّت النار بالشهوات وحُقَّت الجنة بالمكاره ") (٢) كذلك من المبالغات وصف المال بالقناطر المقنطرة قال ابن عاشور : (القنطار .. مبالغة في مقدار المال) (٣) .

وفي السياق لفت " لميزة الإسلام بمراعاته مقتضى الفطرة البشرية ، ومحاولة تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها ؛ إذ يقوم الشرع على " ضبط " هذه الرغائب والذائد ، وهذا " الضبط " وسط بين زديلتين هما " الكسب " و " الإباحية " ، فبايقاع هذا الضبط على هذه المشتبهات يسمو الإنسان ويعلو على البهيمية كما يخلو في الوقت نفسه من العقد النفسية والنزغات الشيطانية ، وينجو من الوقوع في مستنقع الرذيلة .

ومنه المبالغة في الشرف في الدرجة والفضيلة حيث قَدَّمَ الأشرف فالأشرف كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٤) .

فقد جاء هذا التركيب على حسب التترُّل من الأعلى إلى الأدنى إلى أدنى منه وفي هذا ترغيب للمؤمنين في طاعة الله وطاعة رسوله ، حيث وعدوا بمرافقة أقرب عباد الله إلى الله ، وأرفعهم درجات عنده ، والظاهر أن المؤمنين في هذه الآية قُسموا أربعة أقسام وجعل لهم أربعة منازل ، بعضها دون بعض الأول : الأنبياء : تمدهم القوة الإلهية والثاني : الصديقون : وهم الذين يزاحمون الأنبياء في المعرفة ، والثالث : الشهداء :

(١) البحر المحيط ٢ / ٤١٤ .

(٢) نفسه ٢ / ٤١٣ .

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٣ جزء ٤ / ٢٨٩ .

(٤) النساء / ٦٩ .

وهم الذين يعرفون الشيء بالبراهين ، والرابع : الصالحون : وهم الذين يعرفون الشيء باتباعات وتقليدات الراسخين في العلم (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ (٢) . ، لأن جبريل صاحب الوحي والعلم ، وميكائيل صاحب الأرزاق ، والخيرات النفسانية أفضل من الخيرات الجسمانية (٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ ﴾ (٤) . حيث قُدِّمَ القريبُ ؛ لأن الصدقة عليه أفضل من الأجنبي وهكذا أدناك أدناك قال ابن جزي : { (ذوي القُربى) وما بعده ترتيب بتقديم الأهم فالأهم ، والأفضل ، لأن الصدقة على القرابة صدقة وصله بخلاف من بعدهم ثم اليتامى لصغرهم وحاجتهم ثم المساكين للحاجة خاصة ، وابن السبيل : الغريب ، وقيل الضعيف ، والسائلين وإن كانوا غير محتاجين ، وفي الرقاب عتقها } (٥) .

فالحفاوة بذوي القربى ، والمبالغة في معاملتهم ، وتقديمهم على غيرهم من أهم الركائز التي حثَّ عليها الشرع ، وقُدِّمهم ، لأنهم بعد الوالدين من أسس بناء المجتمع الإسلامي وتقويته ، وقد جاء في الأثر : " أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح " اعتدًا بأن الأسرة هي النواة الأولى في المجتمع ، وإذا أضفنا إلى ذوي القُربى الاعتناء من بعدهم باليتامى والمساكين فقد تم التضامن والتكافل في محيطٍ أوسع ، ومنه أخذ الغربيون يتشددون بحقوق الطفل ، وحقوق الإنسان وحق المرأة حتى أضحت في زمننا هذا شعارات جوفاء للترويج لمدنيّتهم الزائفة ، فهم في العراق وأفغانستان يقتلون الأطفال والنساء والرجال ويعذبونهم فأين هي الحقوق ؟ ! ويبقى وسط هذا الزخم الفاسد صفاء القرآن ونقاؤه ، ويبقى كمال الإسلام وسبقه وخلوده .

(١) البحر المحيط ٢ / ٤١٤ .

(٢) البقرة / ٩٨ .

(٣) انظر البرهان ٣ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٤) البقرة / ١٧٧ .

(٥) التسهيل ١ / ٦٩ .

ومنه توظيف التقديم لبيان الكثرة المتوقعة :

نحو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ (١)

قَدَّمَ الظالم لكثرتة ، ثم المقتصد ثم السابق . قال الزمخشري : (فإن قلت) لِمَ قَدَّمَ الظالم ثم المقتصد ثم السابق (قلت) للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل (٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (٣)

وقوله : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (٤)

وجعل منه الزمخشري : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ (٥) يعني بدليل قوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) وحديث بعث النار (٧) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٨) .

(١) فاطر/ ٣٢ ، قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة وأكثر المفسرين هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد - صلى الله عليه وسلم ، فالظالم لنفسه : العاصي ، والسابق : التقي ، والمقتصد : بينهما وقال الحسن : السابق من رجحت حسناته على سيئاته ، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته وجميعهم يدخلون الجنة وروي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له . انظر التسهيل ٣ / ١٥٨ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٧٦ ، ولابن جزي رأي " آخر في سر التقديم حيث قال : (فإن قيل : لِمَ قَدَّمَ الظالم ووسط المقتصد ، وأخر السابق ؟ فالجواب : أنه قَدَّمَ الظالم لنفسه رفقاً به لنلا بينس (هكذا وردت والصحيح بيأس) وأخر السابق لنلا يعجب بنفسه (التسهيل ٣ / ١٥٨ .

(٣) هود / ١٠٥ .

(٤) آل عمران / ١٥٢ .

(٥) التغابن / ٢ .

(٦) يوسف / ١٠٣ .

(٧) انظر البرهان ٣ / ٢٦٠ .

(٨) المائدة / ٣٨ .

لأن السرقة في الذكور أكثر وقوله : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جلدة ﴾ (١) قَدَّمَ في الزنا المرأة لأنه فيهنَّ أكثر (٢) .

ومنه ما وُظِفَ للحث عليه خيفة التهاون به نحو قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ * أُوَيِّزُوجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٣)

حيث قَدَّمَ الإناث حثًا على الإحسان إليهن ، ومبالغة في إكرامهن ، ورعاية لظروفهن قال ابن جزي : { قَدَّمَ الإناث اعتناءً بهن وتأنيسًا لمن وهبهن له } (٤) وأضاف الزمخشري في علة تقديم الإناث قوله : { لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم } (٥) وهذا مثل بيّن لحفظ الإسلام حق المرأة وحمايتها ، وليس كما يتصور بعض الحاقدين على الإسلام أنه لم يعطها حقها ولم يوفر لها حمايتها إلا ساء ما يحكمون !

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَن بَعْدُ وَصِيَّةٌ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ ﴾ (٦)

فإن وفاء الدَّيْن سابق على الوصية ، لكن قَدَّمت الوصية ، لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها ، بخلاف الدَّيْن (٧) قال ابن جزي : { وإنما قدمت الوصية على الدَّيْن ، والدَّيْن مقدم عليها في الشريعة : اهتمامًا بها ، وتأكيديًا للأمر بها ، ولئلا يتهاون بها وأخر الدَّيْن ؛ لأن صاحبه يتقاضاه فلا يحتاج

(١) النور / ٢ .

(٢) انظر البرهان ٣ / ٢٦٠ ، يبرر ابن جزي نسبة الزنا إلى المرأة وتقدمها في ذلك على الرجل لأنه كان منهن إماء وبغايا يجاهرون بذلك . انظر التسهيل ٣ / ٥٨ ولست أرى هذا الرأي لعموم اللفظ ولأن الغالب أن الفاحشة لا تحدث إلا بتزويتها وموافقها إذ من السهولة أن توقع الرجل - إن شاعت - وليس العكس قال أبو حيان : (قَدَّمت " الزانية " على " الزاني " لأن داعيتها أقوى ، لقوة شهوتها ، ونقصان عقلها ، ولأن زناها أفحش وأكثر عارًا) البحر المحيط ٦ / ٣٩٢ ومن هنا أمر الشرع بتسترها .

(٣) الشورى / ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) التسهيل ٤ / ٢٤ .

(٥) الكشاف ٣ / ٤٠٨ .

(٦) النساء / ١١ .

(٧) انظر البرهان ٣ / ٢٦٥ .

إلى تأكيد في الأمر بإخراجه { (١) } .

ح - توظيف التفضيل للمبالغة :

اسم التفضيل : هو اسم مشتق مصوغ من الفعل للدلالة على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة ، وزاد أحدهما على الآخر في هذه الصفة نحو : محمد - صلى الله عليه وسلم - أفضل الأنبياء ، وعمر أعدل الخلفاء وعثمان أشد الصحابة حياءً (٢) .

له وزن واحد قياسي يأتي عليه هو : " أفعل " نحو : أعظم ، وأرحم ، وخرج عن هذا الوزن ثلاثة ألفاظ وردت بغير همزة هي " خير ، شر ، حباً " .

وسرُّ تقارب التفضيل من المبالغة هو الزيادة في كلِّ ، فإنك واجدٌ شَبَهًا بين قولك : محمد مكرم ، و محمد أكرم من علي ، و محمد هو الأكرم . فالجملة الأولى المقترنة بصيغة التفضيل تشي بالكثرة من الكرم والجملة الثانية الدلالة فيها مقترنة بمدى كرم علي ، إذ كلما زاد كرمه ازداد كرم محمد بالتبعية لأنه هو المفضل ، بيد أنك واجدٌ " الأسلوب الثالث قد بلغ الغاية ، إذ وُصِفَ محمد بوصوله أعلى الكرم .

وإذا أضيف أفعل التفضيل إلى جنس لم يكن بعضه ، ولا واحدًا من أحاده نحو : زيد أشجع الأسود ، وأجود السحب ، فيصير المعنى زيد أشجع من الأسود ، وأجود من السحب ، وعليه قوله تعالى :

﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣) و ﴿ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤) و ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٥)

(١) التسهيل ١ / ١٣٢ .

(٢) قد يأتي التفضيل في صفتين متضادتين نحو: الشتاء أبرد من الصيف . وليس المراد هنا أن الشتاء والصيف اشتركا في صفة البرد ، والشتاء يفضل به فيها . وإنما المراد أن برد الشتاء أشد من حر الصيف كذلك لا يصاغ التعجب والتفضيل إلا مما يقبل الزيادة والنقص ، فلا يُقال : زيد " أموت الناس . انظر دراسات لأسلوب القرآن ٧ / ١١٦ ولاسم التفضيل شرائط انظرها مبسوطاً في كتب النحو .

(٣) الجمعة / ١١ .

(٤) هود / ٤٥ .

(٥) المؤمنون / ١٤ .

أي خير من كل من تسمى برازق ، وأحكم من كل من تسمى بحاكم وأحسن من كل من اتصف بخالق (١) .

ومن توظيف التفضيل للمبالغة قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ (٢)

أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيت منها فاذكروا ذكره وبالعوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشد (٣) وهذا يتفق مع قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (٤) .

وكان المبتغى من الإنسان أن يبتهل بذكر الله ، وأن يلهج به كما يلهج بذكر أبيه ؛ بل ينشد في هذا الذكر الغاية ، ويرمي من ورائه بلوغ المنتهى الذي يفوق ذكر الآباء ومفاخرهم ؛ إذ فخر المرء في الإسلام يتبلور في مدى ذكره الدائم لله ، واعتزازه المستمر بدينه ، لا بذكر الآباء الذين كانوا فخر الماضي ، وفخر ما سلف من أيامهم لأن ذكر الله أضحى في ظل الإسلام فخر الماضي والحاضر والمستقبل .

ومنه المبالغة في القسوة كما في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (٥) .

في هذا السياق تؤدي " أو " دورًا بارزًا في توجيه الدلالة على حسب المعنى فإذا كانت بمعنى " بل " يكون المعنى عند ذلك : بل قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، وهذا لفرط القسوة ، وطغيانها في قلوبهم (٦) .

وقال بعضهم هي للترديد أو التخيير أي قست قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو هي للتنويح بمعنى بعض قلوبهم كالحجارة و بعضهم

(١) انظر البرهان ٤ / ١٦٨ .

(٢) البقرة / ٢٠٠ .

(٣) انظر الكشاف ١ / ١٢٤ / ١٢٥ .

(٤) الأحزاب / ٤١ .

(٥) البقرة / ٧٤ .

(٦) انظر التسهيل ١ / ٥١ .

وصلت بهم القسوة شدتها فهي أقسى من الحجارة ، واستحسن أبو حيان التوجه الأخير (١) .

هذا السياق جاء بعد مشهد مؤثر ، ومثير لكل عوامل الخشية والتقوى وهو انبعاث الميت إنساناً حياً ناطقاً على إثر ضربة من بعض جسد البقرة المذبوحة ، ليس فيها من حياة ، ثم يعود هذا الميت بعد شهادته فيمن قتل " قتل بني إسرائيل " المسئول عنه نبي الله موسى - عليه السلام - يعود إلى عهده الأول . إنها آية تستجيش في قلوب بني إسرائيل معاني الإيمان ، والإخبات والتصديق التام .. لكن يا للأسف إما ازدادت قلوبهم بعد هذا المشهد إلا قسوة وما اكتسبت إلا جذباً وبعداً وجاءت المبالغة في القسوة لتوصل هذا الجفاء ، إنه تاريخ مديد " حافل " بدلائل الكفر والتكذيب والالتواء .

وشبيهه " بهذا في موضع " أو " قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُوا أَيديكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (٢) .

أي ألا تعجب يا محمد من أناس طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم ساعتها أمسكوا عن قتال الكفار فلم 'أومر بقتال ، فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد خشية ، وهنا تؤدي " أو " دورها الثلاثي كما في المثال السابق ، إما للتخيير أو بمعنى " بل " ، أو للتتويح يعني أن منهم من يخشى الناس كخشية الله ، ومنهم من يخشاهم خشية تزيد على خشيتهم الله (٣) .

وقال الزمخشري معنى : " يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية " أي مثل أهل خشية الله أو أشد خشية من أهل خشية الله وكأنه اختار

(١) انظر البحر المحيط ١ / ٤٢٨ .

(٢) النساء / ٧٧ .

(٣) انظر البحر المحيط ٣ / ٣١٠ .

ومهما يكن من أمر فقد بلغ خوف هؤلاء (٢) مبلغًا عظيمًا للدرجة التي أضحي خوفهم فيها أشد من خوف الله وفي هذا مبالغة ناطقة بمدى الخوف والفرع اللذين وصلوا إليهما ، ومدى الجزع والانهيار اللذين مُنوا بهما .

ومنه المبالغة في حرص اليهود على الحياة – أي حياة !!

كما قال عز من قائل : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهٗمْ أٰحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيٰٓةٍ وَمِنَ الَّذِيْنَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهٖ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعْمَرَ ۗ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ ۚ بِمَا يَعْمَلُوْنَ ۙ ﴾ (٣) .

حيث يحمل السياق التأكيد على حرص اليهود على الحياة وهم في ذلك أحرص من المشركين أنفسهم قال الزمخشري : { " فإن قلت " ألم يدخل الذي أشركوا تحت الناس (قلت) بلى ولكنهم أفردوا بالذكر ؛ لأن حرصهم شديد ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا فحذف لدلالة أحرص الناس عليه وفيه توبيخ عظيم ، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا فحرصهم عليهم لا يستبعد لأنها جنتهم فإذا زاد عليهم من الحرص من له كتاب ، وهو مُقرٌّ بالجزاء كان حقيقًا بأعظم التوبيخ } (٤) .

قال أبو حيان : (أتى بصيغة أفعل من الحرص مبالغة في شدة طلبهم

(١) انظر الكشاف ١ / ٢٨٢ ، والبرهان ٤ / ١٦٩ .

(٢) رجَّح ابن كثير والزمخشري أنهم جماعة من المؤمنين ، واختار القرطبي وابن جزي وأبو حيان أنهم جماعة من المنافقين ، قال أبو حيان " الظاهر أن القائلين هذا هم منافقون ، لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان ؛ ولهذا جاء السياق بعده : " وإن تصبهم حسنة " يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك " النساء / ٧٨ وهذا لا يصدر إلا من منافق " البحر المحيط ٣ / ٣١٠ وهذا الرأي الأخير هو الذي أميل إليه ؛ لأن المؤمنين مهما بلغت درجة خوفهم لا يخشون الناس أكثر من خشية الله ، فهام في غزوة الأحزاب وقد بلغت قلوبهم الحناجر وزاغت أبصارهم قال الله عز وجل عنهم " ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا " الأحزاب / ٢٢ .

(٣) البقرة / ٩٦ .

(٤) الكشاف ١ / ٨٣ .

للبقاء ودوام الحياة (١) .

ودليل هذه المبالغة قوله تعالى في السياق نفسه : ﴿ يود أحدهم لو يُعمرَ ألف سنة ﴾ إذ يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة فهم (لشدة حرصهم في ازدياد الحياة ، يتعلق تمنّيهم في ذلك بما لا يمكن وقوعه عادة) (٢) وانظر إلى المبالغة في الحرص على الحياة أورثهم الطمع البالغ في الدنيا بأي ثمن ، يريد أن يعيش أي حياة !! وإن كانت سويعابٍ وأنيفاسًا ، واللآلئ في لفظة " سنة " أنها تدل على الجذب والشدة (٣) وهذا يعني أن دلالة " سنة " تتسجم مع دلالة " أحرص الناس على حياة " فهو يود أن يعيش حياةً مديدةً وإن كانت كلها شقاء وكد ومعاناة ، فلو جاء النظم " ألف عام " لكانت حياته قائمة على الانتقاء والاختيار لدلالة " عام " على النماء والخصب (٤) ولكن للأسف يود أن يعيش في أي مستوى حياتي وتحت أي ظرف معيشي ، وهذا يُفسّر لنا سر تمسكهم بأرض فلسطين وادعائهم كذبًا أنها أرضهم وإن كانت تلك الحياة ممزوجة بالخوف والفرع والتشريد والدماء .

ومنه المبالغة في التكريم وحسن الجزاء كما في قوله تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٥) .

أي للذين أحسنوا من المؤمنين الحُسنَى أي الجنة و " زيادة " وقد اختلف المفسرون في تفسيرهم المقصود من هذه الزيادة على خمسة أقوال :

١- الحسنى : الحسنة ، والزيادة عشرة أمثالها .

٢- عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

(١) البحر المحيط ١ / ٤٨٠ .

(٢) نفسه ١ / ٤٨٢ .

(٣) قال الراغب الأصفهاني : { أكثر ما تستعمل السنة في الحول الذي به الجذب يقال : أسنت القوم : أصابتهم السنة } المفردات / ٤٣٠ .

(٤) قال الراغب : { العام كالسنة ، لكن كثيرًا ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الشدة أو الجذب . ولهذا يُعبّر عن الجذب بالسنة ، والعام بما فيه الرخاء والخصب } المفردات / ٥٩٨ .

(٥) يونس / ٢٦ .

٣- مغفرة من الله ورضوان .

٤- أن تمر السحابة بأهل الجنة ، فنقول : ما تريدون أن أمطرکم فلا يريدون شيئًا إلا أمطرتهم .

٥- وهو الرجح : النظر إلى وجه الله تعالى ، قال بهذا أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب في رواية ، وحذيفة ، وعبادة بن الصامت ، وكعب بن عجرة ، وأبو موسى ، وصهيب ، وابن عباس في رواية وهو قول جماعة من التابعين ، وحديث الرؤية في مسلم والنسائي (١) .

وتمثلت المبالغة في لفظي : " الحُسنَى " و " زيادة " ، الحسنَى هي الجنة وكما جاء في الحديث : " ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هي الجنة " .

وجاء في فضلها " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " ثم يأتي الجزاء الأوفى ، والمئة الكبرى ، والتجلي الأعظم وهو النظر إلى وجه الله الكريم ن فأي جزاء أوفى من هذا نسأله سبحانه لذة النظر إلى وجهه الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مُضيلة .

وبين " بعد هذه الإطلالة أن هذه الأساليب كانت ثرية بالذكات الجمالية واللفظات الفنية ، بحيث يُصبح من العسير ؛ بل من المحال أن تسارع إلى رفض هذه الأساليب الإنشائية " غير الطليبية " جملة بحجة أن الجمال منوط " فقط بالأساليب الإنشائية " الطليبية .

ولست أزعم بعد هذا أني رصدت كل جماليات هذه الأساليب لا سيما ما يتسم بالمبالغة ، بل هذا الذي قدمت لا يعدو أن يكون نتفًا دالة على صحة ما ملت إليه من عدم التسرع في رفض أي أسلوب مسبقًا قبل الدراسة البلاغية الفاحصة والمتأملة فما اتفق والذوق الفني قبل ، وما تعارض مع الذوق ، وافتقد الجودة ، واختل معياره البلاغي رفض .

(١) انظر البحر المحيط ٥ / ١٤٩ ، وانظر التسهيل ٢ / ٩٢ .

أما القرآن فقد ارتقى بكل أساليبه إلى الدرجة العليا ، والمنزلة الحسنى حتى ليُصيبُ الدارس بالحيرة والدهشة في أيها يختار ، وأيها ينتقي ، فبحره زاخر ، وفيضه سابغ ، وعطاؤه ممدود درّار .

(٣) الأساليب الخبرية

الأساليب الخبرية : تدرس في علم النحو على أساس أنها جزء أصيل في بناء الجملة ، لتتم عن طريقها الفائدة التقريرية ، وتخضع لقواعد الإعراب ، ولمقتضى التشكيل البنائي للتركيب اللغوي إفرادًا ، وتثنيةً ، وجمعًا ، وتذكيرًا وتأنيثًا .. الخ بينما تدرس في منظور البلاغة العربية من حيث معناها وقبولها للصدق والكذب ؛ هذا مع ضرورة التنبية إلى أن التركيب الخبري الفني لا حاجة له إلى أن يطابق الواقع المعيشي ؛ لأن له واقعًا خاصًا به ؛ هو واقع العمل الفني نفسه ، المُستقى من التجربة الفنية التي يخوضها المبدع^(١) حيث يُعني بكشف المعاني الفنية التي تتجاوز المعاني الأصلية الوضعية إلى آفاق أوسع من التعبير الأدبي الرفيع .

ومعنى هذا أن البلاغي لا يقف كثيرًا عند حدود الدلالة الوضعية للكلمة ، وإنما يبحث ببصيرته الواعية عما وراء الدلالة الوضعية من دلالات فنية يكشفها السياق اللغوي ، وتشير إليها القرائن التي يفهمها المتلقي الفطن بدربته في تذوق النصوص وقدرته على قراءة ما بين السطور من إحياءات يشع بها النص الأدبي^(٢) .

وورد في القرآن الكريم أسلوبان من الأساليب الخبرية وظفًا للمبالغة

هما :

١- أسلوب النفي .

٢- أسلوب التوكيد .

(١) انظر بديع التراكيب د . منير سلطان / ١٩٣ .

(٢) انظر دراسات في المعاني والبيدع د . عثمان عبد الفتاح / ٤٣ .

أولاً : توظيف النفي للمبالغة :

من أقسام الخبر النفي ، بل هو شطر الكلام كله ، والفرق بينه وبين الجَحْد ، أن النافي إن كان صادقاً سُمِّيَ كلامه نفيًا ، ولا يُسَمَّى جَحْدًا ، وإن كان كاذبًا سُمِّيَ جَحْدًا ونفيًا أيضًا ، فكل جَحْد نفي ، وليس كل نفي جَحْدًا ، مثال النفي : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ (١) .

ومثال الجَحْد نفي فرعون وقومه آيات موسى ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ (٢) .

وأدوات النفي هي : لا ، ولات ، وليس ، وما ، وإن ، ولم ، ولما (٣) .

ومن النفي الذي وُظِفَ للمبالغة قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٤) .

إذ ما حزن على فقد فرعون وقومه بغرقهم أحد ، ولا تأثر بموتهم كائن " من الخلق ، وإذا رجعنا إلى شأن العرب في تعابيرهم عن موت عظمائهم نجد عبارات مثل : هذا بكت عليه السماء والأرض .. وبكته الريح .. وذلك أظلمت له الشمس .. الخ (٥) ، ولما كان قوم فرعون هؤلاء كفرة مكذبين فقد ماتوا ميتة مهينة .. غرقى بعدتهم وعنادهم ، دون أن يكثر بهم أحد ، فجاء التعبير القرآني الخالد ﴿ فَمَا بَكَتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ دلالة على مدى تحقيرهم ، والزرارية بهم المتمثل في عدم شعور أي مخلوق بهم .

بيد أن المفسرين لم يقفوا عند هذا الوجه فقط ، فهناك وجهان آخران في الآية كما ذكر ابن جزي الكلبى تعليقا على

(١) الأحزاب / ٤٠ .

(٢) النمل / ١٣ ، ١٤ .

(٣) انظر الإتيان / ٣ ، ٢٢٩ ، وانظر البرهان / ٢ ، ٣٧٥ وما بعدها .

(٤) الدخان / ٢٩ .

(٥) انظر الكشاف / ٣ ، ٤٣٢ .

الآية : { فيه ثلاثة أقوال : الأول : إنه عبارة عن تحقيرهم وذلك أنه إذا مات رجل " خطير قالت العرب في تعظيمه بكت عليه السماء والأرض على وجه المجاز والمبالغة ، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك ؛ لأنهم أحقر من أن يبالي بهم ، الثاني : قيل إذا مات المؤمن بكى عليه من الأرض موضع عبادته ومن السماء موضع صعود عمله ، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم كفار ، أو ليس لهم عمل صالح . الثالث : أن المعنى ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض ، والأول : أفصح وهو منزع معروف في كلام العرب { (١) .

وقوله : " الأول أفصح " يعني : " الوجه المجازي " وجه المبالغة وقوله : " وهو منزع " معروف " في كلام العرب " لمس " منه لفنية اللغة وسعة عطائها ، والعرب تستخدم بكاء الطبيعة ونوحها للدلالة على حجم الخسارة ، وعظم القوت ، كما يستخدم بكاء السماء على وجه الخصوص من جهة أخرى دلالة على الإمطار كما في قولهم : " إذا بكت السماء ضحكت الأرض " وهم يعنون بالأولى : الإمطار ، وبالثانية : الإنبيات .

وعلى أية حال فقد دلّ نفي بكاء السماء عليهم على المبالغة في تحقيرهم ونكريتهم وجهالتهم في خلق الله ، فما اكثرث بموتهم أحد ، ولا شعر بفقدهم مخلوق ، ولكي يبين لك هذا قارن ذلك التحقير بتلك المبالغة الواردة في السيرة في إكرام الصحابي الجليل سعد بن معاذ الذي اهتز له عرش الرحمن استبشاراً بمقدم روحه ، واحتفاءً بقدمه الراسخة في الإيمان .

ومن المبالغة في التكذيب كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

أصل التركيب أن يجيء " وما آمنوا " ليطابق قوله ﴿ مَن يَقُولُ آمَنَّا ﴾ ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين مبالغة

(١) التسهيل لابن جزي الكلبى ٤ / ٣٦ ، وانظر الكشاف ٤ / ٢٣ ، ٢٤ والبيضاوي ٢ / ٤٢٤ ، وأبا السعود ٨ / ١٣٢ ، وتأويل مشكل القرآن ١١٢ / ٩ والقرطبي ٩ / ٦١٨٩ - ٦١٩١ ، والبحر المحيط ٨ / ٣٦ .

(٢) البقرة / ٨ .

أكدت بحرف الجر الزائد " الباء " للدلالة على نفي الإيمان عنهم مطلقاً ، إذ لم يتصفوا بالإيمان في حال من الأحوال ، لا في الماضي ، ولا في الحال ولا في الاستقبال (١) .

ومنه المبالغة في نفي البشري كما في قوله تعالى :

﴿ لَا يُبْشِرُ يَوْمئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

المعنى : لا يُبَشِّرُ يومئذٍ المجرمون ، وإنما عدل عنه للمبالغة قال أبو السعود : { والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشري ، وفقدانها مُشعراً بأن هناك بُشْرَى يمنعونها أو يفقدونها ، وأين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن إثبات ضدها كما ان نفي المحبة في مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ كناية عن البغض والمقت دلّ على ثبوت المنذر لهم على أبلغ وجه وآكده } (٣) .

ومنه المبالغة في النفي لأحقية المثبت كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٤) .

أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم ، ولكن الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ، وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضة من تراب ، لأن كقاً من تراب لا يملأ عيون الجيش العرمم قال الزمخشري : { إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم وشاء النصر والظفر ، قوَى قلوبكم وأذهب عنها الفزع والجزع ﴿ وما رميت ﴾ أنت يا محمد ﴿ إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ يعني أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر ولكنها رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم فأثبت

(١) انظر الإيضاح / ١٣٢ ، والصاوي على الجلائن ١ / ١٠ ، والبيضاوي ١ / ٢٥ ، وأبا السعود ٤٠ / ١ .

(٢) الفرقان / ٢٢ .

(٣) أبو السعود ٦ / ٢١١ .

(٤) الأنفال / ١٧ .

الرمية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن صورتها وجدت منه ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول - عليه الصلاة والسلام - أصلاً { (١) .

واللافت في النظم القرآني ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ نفي الرمي وإثباته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سياق واحد لبيان قدرة الله وأنه سبحانه فعّال لما يريد ، فهو المعين على هذا الرمي الظاهري وهو المسدّد له في أعين المشركين على كثرتهم على سبيل الحقيقة .

ومنه نفي الشيء مقيداً والمراد نفيه مطلقاً قال الزركشي : { وهذا من أساليب العرب يقصدون به المبالغة في النفي وتأكيديه ، كقولهم : فلان لا يُرجى خيره ، ليس المراد أن فيه خيراً لا يُرجى ، غرضهم أنه لا خير فيه على وجه من الوجوه . ومنه : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقِّ ﴾ آل عمران (٢١) { (٢) .

فالقيد في قوله تعالى : ﴿ بغير حق ﴾ جاء لبيان تأكيد الاعتداء وعدم أحقية القتل ؛ إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير حق قال أبو حيان : { لم يرد هذا على أن قتل النبيين ينقسم إلى قتل بحق وقتل بغير حق بل ما وقع من قتلهم إنما وقع بغير حق ؛ لأن النبي معصوم من أن يأتي أمراً يستحق عليه فيه القتل وإنما الحق عندهم : أي لم يدعوا في قتلهم وجهاً يستحقون به القتل عندهم ، وقيل جاء ذلك على سبيل التأكيد كقوله ﴿ ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾ الحج ٤٦ إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير الحق ولم يأت نبي قط بما يوجب قتله وإنما قتل منهم من قتل كراهة له وزيادة في منزلته { (٣) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَاءً ﴾ (٤) . قال الزركشي : (فإن ظاهرة نفي الإلحاف في المسألة ، والحقيقة نفي المسألة

(١) الكشاف ١١٩ / ٢ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٩٦ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٩٩ .

(٤) البقرة / ٧٣ .

الْبَيْتِ وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمَفْسُورِينَ ، وَبَدَلِيلُ قَوْلِهِ : ﴿ يُحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعْفِيفِ ﴾ (١) . وَمَنْ لَا يَسْأَلُ لَا يَلْحَقُ قَطْعًا ؛ ضَرُورَةٌ أَنْ نَفِي الْأَعْمِ يَسْتَلْزِمُ نَفِي الْأَخْصَنِ (٢) .

فالنفي في السياق ليس منصبًا على القيد "إلحافًا" ؛ بل منصبٌ "على قضية المسألة برمتها مبالغة في تأكيد النفي قال ابن عباس : (لَا يَسْأَلُونَ إِلْحَافًا وَلَا غَيْرَ إِلْحَافٍ) (٣) ودليل النفي المطلق قوله تعالى في الآية نفسها : ﴿ تَعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ قال الزمخشري : " من صفرة الوجه وراثثة الحال " (٤) ولاشك أن قومًا هذا حالهم يعكس تركهم للسؤال جملة ، وإلا لتغير حالهم وتحسنت هيئاتهم .

ومنه المبالغة في عدم التبصُّر والتعقل بنفي الرؤية كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٥) .

قال الزركشي : { أي تحسبهم ينظرون إليك ؛ لأن لهم أعينًا مصنوعة بأجفانها وسوادها يحسب الإنسان أنها تنظر إليه بإقبالها عليه ، وليست تبصر شيئًا } (٦) ، وقال ابن جزي : { " وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " إن كان هذا من وصف الأصنام ، فقوله ينظرون مجاز ، وقوله لا يبصرون حقيقة ، لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئًا ، وإن كان من وصف الكفار فينظرون حقيقة ولا يبصرون مجازًا على وجه المبالغة كما وصفهم بأنهم لا يسمعون } (٧) .

وهذا القول الثاني لابن جزي أقرب لسياق الآيات بدليل قوله قبل :

(١) البقرة / ٢٦٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٩٧ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٣٤٣ .

(٤) الكشاف ١ / ١٦٤ .

(٥) الأعراف / ١٩٨ .

(٦) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٩٥ .

(٧) التسهيل ٢ / ٥٨ .

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب ” لا يفقهون بها ولهم أعين ” لا يبصرون بها ولهم أذان ” لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾^(١) . ، إذ ليس المعنى نفي السمع والبصر جملة ، فقد كانوا ذوي سمع وبصر ، وإنما المعنى نفيهما عما ينفع في الدين ، فهم لمَّا تركوا الانتفاع بهما ، وأبطلوا الإفادة منهما ، كأنهم فقدوهما بالكلية ، فجاء النفي المطلق مبالغة في تأكيده .

ثانيًا : توظيف التوكيد للمبالغة :

التوكيد : تمكين الشيء في النفس وتقويته ، لإزالة الشكوك وإمطاة الشبهات عما أنت بصدد الإخبار عنه ، وتؤكد الجمل الاسمية بأن أو بأن واللام أو بأن واللام والقسم وتؤكد الجمل الفعلية بقَد أو بقَد والقسم ويُعدُّ القصرُ بابًا من أبواب التوكيد ومن أدواته : إنما والنفي والاستثناء والعطف بـ (بل ، لا ، لكن)^(١) ومنه التوكيد اللفظي والمعنوي .

وتمَّ ارتباط بين التوكيد والمبالغة ، ففي قولك : ما محمد إلا كاتب ، يقوم القصر على إلغاء مجموع الصفات الكائنة لمحمد ، ولا يستبقي إلا صفة الكتابة وكأنها الصفة الوحيدة لمحمد ، وهذا الإلغاء يعتمد على حركة ذهنية قائمة على : { الإدعاء - أو المبالغة } ؛ لأن الواقع التنفيذي لا يقبل هذا الحكم الذي أنتجته الصياغة ، وهو كون محمد لا صفة له إلا الكتابة فقط^(٢) .

ومما وظف فيه للمبالغة قوله تعالى :

﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾^(٣) .

وشبيهه بهذا الموضع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾^(٤) .

(١) انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ١ / ٢٤٢ ، وعلوم البلاغة / ٦٠ .

(٢) انظر البلاغة العربية / ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) البقرة / ١٧٤ .

(٤) النساء / ١٠ .

جاءت الأولى في سياق الذين يكتُمون ما أنزل الله ، وجاءت الأخرى في سياق الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، وكلاهما سياقان للقصر ، وهو على اعتبار ما يؤول إليه أكل المال الحرام الذي يُفضي بهم إلى النار ، وقوله : ﴿ في بطونهم ﴾ زيادة في تعبيح حالهم وهو إما على سبيل التوكيد إذ معلوم أن الأكل لا يكون إلا في البطن فصار نظير ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ (١) . أو كناية عن ملء البطن ، وعبر بالأكّل لأنه أعظم منافع ما تصرف فيه الأموال (٢) .

واللافت في السياقين هو تعدد صور المبالغة فيهما : أولاً : في صورة التركيب القائم في الموضعين على القصر ، ثانياً : في لفظ الأكل المُعبر به عن الاكتساب . ثالثاً : ﴿ في بطونهم ﴾ المشعر بالملء أو التوكيد ، رابعاً : المأكول هو " النار " على سبيل المجاز المرسل فيما يؤول إليه أكل المال الحرام المفضي حتماً إلى النار ، ففي السياق مبالغة في الزجر عن هذين الفعلين القبيحين كتمان الوحي والاشتراء به ثمناً قليلاً ، وأكل مال اليتامى ظلماً .

ومنه ما وُظف لإبداء التناهي في إحاطة علم الله كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣)

أي ما من شيء في غاية الخفاء إلا وهو من عند الله في كتاب ، والمُظهر في السياق لهذا التناهي أمور هي : أولاً : سياق القصر ، فلا تخرج غائبة مهما دقت ، وتناهت في الخفاء عن علم الله ، ثانياً : الصيغة : ﴿ غائبة ﴾ فالتاء فيها للمبالغة كالراوية (٤) وهي بهذا تكثف دلالة المبالغة في الخفاء وتناهي الإحاطة ، ثم أخيراً : حرف الجر الزائد ﴿ من غائبة ﴾ للإشارة - أيضاً - إلى سعة علم الله ، وإحاطته بكل الخفيات مهما صغرت .

(١) الأنعام / ٣٨ .

(٢) انظر البحر المحيط ١ / ٦٦٧ .

(٣) النمل / ٧٥ .

(٤) انظر التسهيل ٣ / ١٠٠ ، البيضاوي ٢ / ١٨٢ ، أبا السعود ٦ / ٢٩٩ ، الكشاف ٣ / ١٥٢ .

ومنه ما وظّف لتعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ (١) " فإن فيه معنى زائداً على الاستثناء ، هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس ، من كونه خرق إجماع الملائكة ، وفارق جميع الملأ الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ، وهو بمثابة قولك : أمر الملك بكذا فأطاع أمره جميع الناس ، من أمير ووزير إلا فلاناً ، فإن الإخبار عن معصية الملك بهذه الصيغة ، أبلغ من قولك أمر الملك فعصاه فلان " (٢) .

وقد حاول المفسرون إظهار دلالة " أجمعون " بعد " كلهم " فقال ابن عطية { " وأجمعين " تأكيد وفيه معنى الحال } ولكن عقب عليه أبو حيان فقال : { وهذا جنوح لمذهب من يزعم أن أجمعين تدل على اتحاد الوقت والصحيح أن مدلوله مدلول كلهم } (٣) وعلى أية حال أيًا كانت النتيجة فلا مناص أن كلمة " أجمعون " أضفت على السياق دلالة التأكيد سواء امتزجت بدلالة الحالية أم لم تمتاز ؛ لأن هذه الدلالة واردة من طبيعة خلق الملائكة في أمثال الأمر وعدم المعصية فهم ﴿ لَا يَعصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٤) . وتبدو المبالغة في مدى بلوغ إبليس أقصى العصيان وقمة الرفض ، إذ زوال التمرد في الوقت الذي امتثل فيه لأمر الله خيرة خلقه وصفوة عبادته وهم الملائكة .

(١) الحجر / ٣٠ ، ٣١ .

(٢) البرهان ٣ / ٤٩ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٤٤٢ .

(٤) التحريم / ٦ .

ومن هنا تتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الأسلوب الخبري الفني أيا كان نوعه لا يخلو من جمال ، حيث لا يقف المتذوق لأسلوب القرآن عند حدود دلالة الكلمة المباشرة ، بل يفنق ما في داخل الكلمات من شحنات معنوية وفكرية ، تثري الأبعاد الجمالية ، وما تحفل به الصياغة اللغوية من مضامين سخية يعيها المتلقي بفطنته ودربته ، ومن التعميم المرفوض أن نحكم على أسلوب بعينه أنه يخلو من جمال أو يناهى عن حقل البلاغة ، أو يخرج من دائرة فن القول .

إن الخبر بوظيفته التقليدية النمطية مجاله الكتابات العلمية والإحصائية والرياضية التي تهدف إلى توصيل المعارف ، ونقل الحقائق بطريقة واضحة منضبطة حيث يختار الكاتب الكلمات المحددة التي تحقق الفائدة أو لازمها ، أما القرآن الكريم فإنه يمثل أعلى النظم ونروة التعبير وكل أسلوبه بليغ ، وجميع ما ذكرت في الفصل من نماذج إنما هو غيض ” من فيض ورشفة ” من بحر ، وحسبي أن أكون قد لمست بعض عجائبه ونكت بدائعه ، ولفئات فرائده .